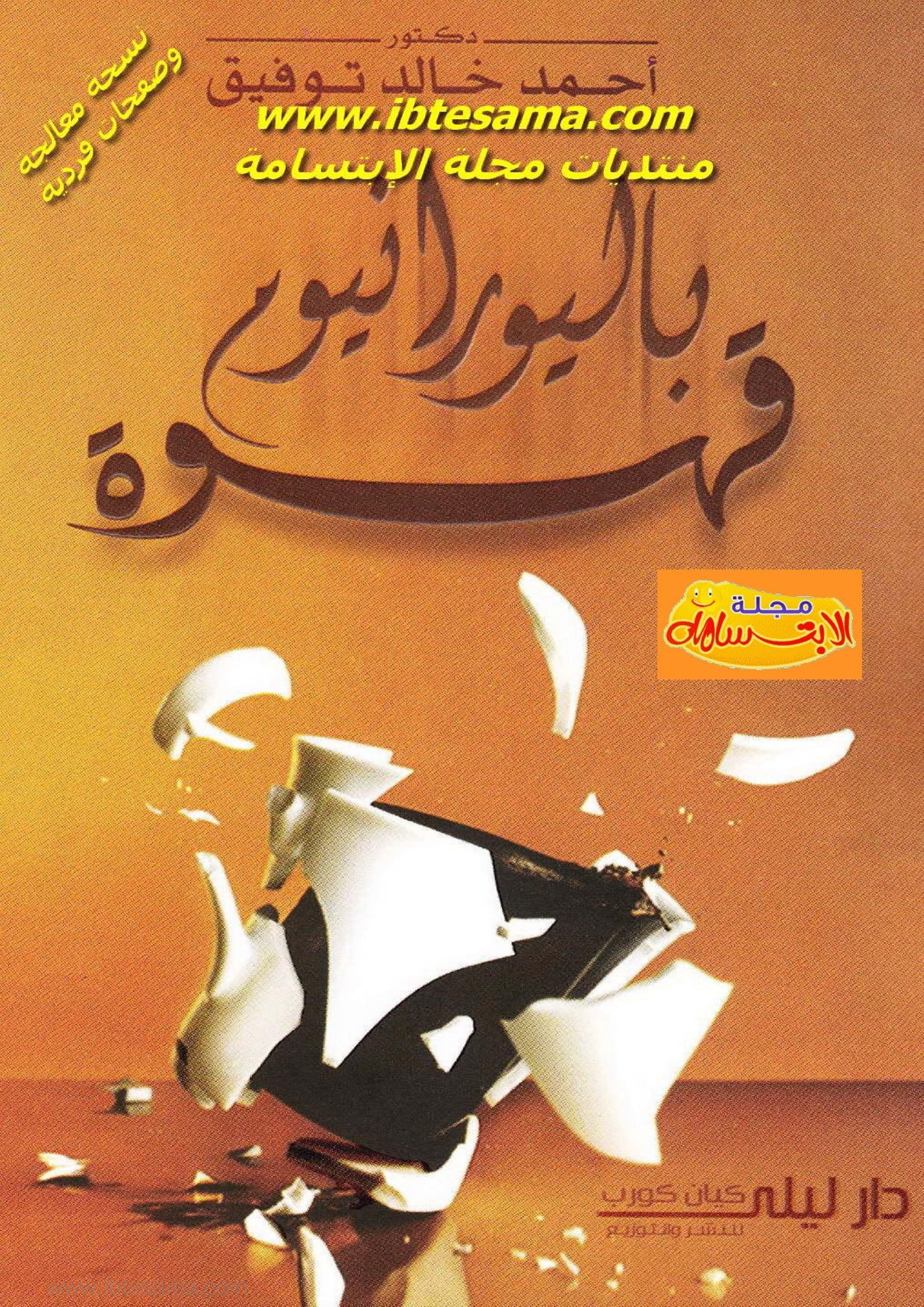

دكتور
أحمد خالد توفيق
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة
نسخة معالجة وصفحات فردية
قهوة باليورانيوم
مجلة الابتسامة
دار ليلى
كيان كورب
للنشر والتوزيع
www.ibtesama.com

كيان كورب للنشر والتوزيع


دار ليلى

الكتاب:

قهوة باليورانيوم

المؤلف:

د. أحمد خالد توفيق

* * *

رقم الإيداع:

23303/2012

الترقيم الدولي:

978-977-5238-88-0

* * *

المدير الفني:

حسام سليمان

مدير التوزيع:

عبد الله شلبي

الإشراف العام:

محمد سامي

المهندسين ٢٦ شارع السودان تقاطع مصدق - الدور الرابع مكتب ١١

هاتف: 002-02-33370042 ، 002-012-23885295

البريد الإلكتروني: [illegible] الموقع الإلكتروني: [illegible]

كيان كورب
للنشر والتوزيع والطباعة
دار ليلى

د. أحمد خالد توفيق

قهوة باليورانيوم



أين ذهب الجميع؟

المنطقـــة 51.. مخلـــوق روزويـــل.. دوائـــر المحاصـــيل.. الاختطاف.. الأطباق الطائرة.. مسدسات الليزر..

هذه هي مفردات ثقافة الفضاء التي يحملـها كـل منـا في عقلـه منذ بداية القرن العشرين تقريبًـا، وهـي ثقافـة صارت مجـسدة جـدًا وقوية جدًا. عـام 1898 كتـب هـ ج. ويلـز قـصته (حـرب العـوالم) فصار الأمر مفروغًا منه، وصار الناس يرون الكائنات الفـضائية في كـل مكـان. انتـشرت مجـلات الخيـال العلمـي وقـصص الخيـال العلمـي، وسادت ثقافة الأطباق الطائرة. سوف يأتون من المريخ بالذات.. سوف يكون لونهم أخضر ولهم ثلاث أعين وهوائي علـى رأسـهم ومـسدسات تطلق عصارة خضراء.. إنهم أوغاد يريدون احتلال الأرض لأن مواردنا

ما زالت بكرًا بالنسبة لمواردهم..

ظهرت مجلات سوبرمان ومعها صار الكون يعج بالكواكب.. هذا كوكب زوس وهذا كوكب بلغور وهذا كوكب يوتان.. هذا كوكب سكانه غير مرئيين وهذا كوكب سكانه يطيرون.. وهذا كوكب سكانه يتنفسون النوشادر.. الخ.. كل الكائنات الفضائية كانت تراقبنا بجهاز الراصد ولهذا كلهم يجيدون لغتنا (أي لغة؟.. طبعاً هي الإنجليزية).. استكملت أفلام الخيال العلمي المهمة، ثم بدأ كثيرون يلتقطون صورًا لأطباق طائرة، وبدأ الفضائيون يخطفون البعض.. البعض الذين يعودون ليحكوا عن أجهزة غريبة وحقن عجيبة اخترقت أجسادهم.. في الوقت نفسه راح الفضائيون يرسمون دوائر محاصيل لا يعرف أحد الغرض منها..

فيما بعد اجتاحت مسلسلات ستار ترك وغيرها أذهان الناس.. عملية غسيل مخ دامت عقودًا حتى صارت الكائنات الفضائية في كل مكان، ثم جاءت أفلام حرب الكواكب.. معها صار كل طفل يعرف تاريخ الامبراطورية والقوة ولوك سكاي ووكر ودارث فيدر.

هذه شخصيات واقعية أكثر منتنا جميعًا.

هكذا ومع الوقت كون البشر فكرة عامة عن الكائنات الفضائية القادمة.. في الغالب سوف يكونون أشرارًا وأوغادًا يريدون الحرب.. في حالات نادرة يكتشف الفضائيون أننا كوكب عدواني فيرحلون.. هناك حالات نادرة أخرى مثل الكائن الفضائي الرقيق صغير الحجم (إي تي) الذي وجد نفسه على أرضنا فراح يفر مذعورًا وأمله العودة لوطنه.. لكن دعني أؤكد لك أن إي تي ليس كالآخرين.. لا تثق في أي كائن فضائي آخر فهم سفلة.

لم يكف العلماء عن النظر للسماء بحثًا عن هؤلاء الأوغاد جيراننا في الكون.. أين هم؟.. لا يمكن أن يكون الكون لنا فقط. لكن أين هم؟.. لماذا لا يظهرون؟.. إنها وقاحة.. عندما تتوقع قدوم ضيف وتنتظر فلا يحضر.. هذه قلة تهذيب لا شك فيها..

صوب العلماء مكبرات الصوت للمجرة يبحثون عن أصوات، وهناك قصة كاملة لكارل ساجان عن هذا.. إنه برنامج SETI الشهير الذي يبحث في نهم عن ذكاء خارج الأرض. وازداد الفضائيون عنفًا في

أفلام هوليوود، وقد رأينا الطبق الطائر يحرق البيت الأبيض بالكامل في فيلم (يوم الاستقلال).

مع الوقت بدأ الناس يقلقون لهذا التأخير..

الناس تحلم بكائنات فضائية شريرة تأتي من المريخ وتدمر كوكبنا وتحتله.. منذ مئة عام يداعبون هذا الحلم ويداعبهم وينتظرونه، واليوم بدا واضحًا أن هذا الحلم كلام فارغ.. لسان حال الناس يقول: لماذا لا يفعل الفضائيون هذا كله؟.. يا لهم من كسالى..!

هكذا فتح أحد العلماء فمه في حذر وقال:

ـ"هناك احتمال قوي أننا وحيدون في الكون.. وأنه لا توجد كائنـ.."

هنا هوى أحد الناس على رأسه بزجاجة، بينما دس آخر حذاءه في فمه، ووجه ثالث ركلة لبطنه.. لا يمكن أن يكون المرء بهذه القسوة وينزع من الناس حلمهم.. أن تقول إنه لا توجد كائنات فضائية اليوم يشبه أن تنكر معلومًا من صحيح الدين كما يبدو.

هناك فريق علماء يرى أن فرص اللقاء عالية جدًا وسوف تحدث حتمًا، ومن هؤلاء العالم البريطاني العظيم المشلول (ستيفن هوكنج). هذا رجل عبقري وكلامه لا يستهان به.. وهو يرى أن اللقاء سيكون مثل لقاء كولومبوس بالهنود الحمر أول مرة.. طبعًا نحن سنكون الهنود في هذا اللقاء، وسوف نُباد عن بكرة أبينا. لهذا ينصحنا بعدم إرسال إشارات للفضاء لأن هذا سيغري الفضائيين بنا. أبقوا رءوسكم خفيضة وصلّوا..

هناك فريق آخر يرى أن فرص اللقاء عالية، لكنها سوف تكون مع كائنات وحيدة الخلية أو بلا خلية أصلاً.. أي أن أول لقاء مرتقب سيكون — عدم المؤاخذة — مع فيروس أو بكتريا.. صورة محبطة، لكن هناك من زعموا أن فيروس الإيدز يمثل اللقاء الأول فعلاً..

فريق من العلماء يرى أننا وحيدون في الكون فعلاً ولا يوجد سكان للكواكب الأخرى. طبعًا هذا رأيي منذ زمن بعيد، وقبل أن تتهمني بالحمق وحدي أرجو أن تقرأ آراء بعض العلماء المهمين في

هذا الصدد، وعلى فكرة اعتمدت في هذا على كتاب سوفييتي عن الفضاء، مع مقالات في مجلة بريطانية، مع القليل من ويكيبديا..

من أصحاب الرأي القائل بأنه لا يوجد شيء، أستاذ الفلك في هارفارد (هوارد سميث)، وهو يرى أن كواكب كل الأنظمة الشمسية التي تم رصدها قريبة جدًا أو بعيدة جدًا عن شموسها. هذا يلغي احتمال وجود حياة.. حياة سوف تحترق أو تتجمد..

المشكلة قديمة، وقد ناقشها عالم الطبيعة الشهير إنريكو فيرمي. لهذا يطلق العلماء على القضية اسم (تناقض فيرمي).. الشمس نجم صغير ومثلها بلايين في الفضاء.. هناك 80 بليون مجرة في الكون.. بالتأكيد حول هذه الشموس كواكب لابد أنها مرت بظروف الأرض.. وبالتأكيد استطاع بعض سكان هذه الكواكب السفر عبر الفضاء بأساليب تفوق خيالنا. إذن كان يجب أن نجد سكان الفضاء حولنا ولو مرة.. لهذا تساءل فيرمي: "أين ذهب الجميع؟"

هذا السؤال المفجع ظل يتردد منذ عام 1950 حتى اليوم...

معادلة دريك التي يعود عمرها لعام 1961 تحاول حساب

عدد الحضارات المتقدمة في مجرتنا. لن أشرح المعادلة لأنها معقدة.. لكن من الواضح أنها تعطينا رقمًا عاليًا جدًا.. إذن أين هم؟ الاحتمال الأول انه لا توجد حضارات أصلاً.. الاحتمال الثاني أن هناك حضارات تقدمت جدًا لدرجة تدمير نفسها (وكارل ساجان يؤمن بهذا)..

أحد العلماء قال ببساطة إنه لا توجد كائنات فضائية.. والدليل؟.. لأنهم لو كانوا موجودين لكانوا هنا بالفعل في هذه اللحظة!.. دعك من أن موجات الراديو تعبر الفضاء بانتظام منذ مئة عام.. هناك حول الأرض نطاق من الموجات الكهرومغناطيسية سمكه 200 عام ضوئي.. لابد أن أي حضارة قد توصلت لصنع موجات الراديو الخاصة بها.. وهناك في مجرتنا حضارات عمرها عشرة بلايين سنة. معنى هذا أننا كنا سنسبح في الموجات الكهرومغناطيسية القادمة من حضارات أخرى.. كنا سنجلس مساء لنشاهد مسلسلاتهم العاطفية بدلاً من المسلسلات التركية..

غزو المجرة كلها بالنسبة لحضارات كهذه يحتاج لخمسة

ملايين سنة.. وهذا شيء بسيط بالنسبة لعمر المجرة كلها. إذن أين هم الآن؟

هناك عدة نظريات تحاول تفسير تناقض فيرمي الغريب..

بعض العلماء يرون أنه ربما كانت هناك كائنات فضائية لكنها لم تتقدم علميًا لدرجة الاتصال بنا. هناك من يعتنق نظرية حديقة الحيوان.. أي أن هذه الكائنات ترانا وتراقبنا لكنها لا تتدخل في شئوننا وتترك لنا فرصة التطور والنمو كاملة.. أي أننا كالقردة في قفص نمارس حريتنا تحت عيون لا تنام.

هناك من يرون — كما قلنا – أن هذه الحضارات العظيمة قد دمرت نفسها في النهاية.. وهو المصير السعيد الذي ينتظر حضارتنا لو نشبت حرب نووية أو تزايد التلوث. هذه الصورة حفرت في أذهان الناس مع صورة انفجار كوكب كريبتون الذي ولد فيه سوبرمان.. أي أنه كانت هناك حضارات لكننا اليوم وحيدون.

ثمة رأي آخر هو أن الكوارث الطبيعية تدمر الحياة في النهاية.. لقد شهدت الأرض فناء الديناصور بطريقة مماثلة، وهذا

يحدث في الكون كله بلا توقف.

هل توجد كائنات فضائية لكن الاتصال بها مستحيل؟. ربما هي على موجة أخرى تمامًا أو تستعمل موجات راديو لا نعرفها ولا نستطيع التقاطها، أو هي غير راغبة في الاتصال بنا.. هناك من يرون أن هناك كائنات لكنها لن تصل لنا، والسبب أن السفر أسرع من الضوء مستحيل.. أي أن وصولها لنا مستحيل.

من الممكن ان يكون البشر لم يبحثوا في الفضاء بما يكفي.. إن التنصت على أصوات الفضاء بدأ فقط عام 1936، ولهذا قد يجدون شيئًا عما قريب.

ثمة احتمال أن يكون سكان الفضاء غرباء جدًا أكثر مما توقعنا.. ربما هم أقرب للأميبا أو الأطياف.. ربما يتكلمون ببطء شديد فيبدو كلامهم ضوضاء.

هناك نظرية المؤامرة المحببة لدى المواطن الأمريكي: "هم لا يخبروننا بما يعرفون". وهذا يعني أن الحكومة الأمريكية تلقت إشارات فضائية وربما التقت بفضائيين لكنها تخفي ذلك، وهو تقريبًا

الموضوع الدائم لحلقات ملفات إكس، وسر اهتمام المواطن الأمريكي بالمنطقة 51.. وهناك نظرية (إنهم بيننا فعلاً لكننا لا نعرفهم) وهي نظرية مخيفة تناسب أفلام (رجال بثياب سود) و(خاطفو الأجساد)... الخ.. أنا شخصيًا مستعد أن أعد لك عشرين شخصًا في مصر أشك في أنهم كائنات فضائية. بل إن هذه النظرية تحاول تفسير نشأة الأديان على أنها لقاءات مع كائنات فضائية اعتقد القدماء أنها قوى علوية وملائكة..

الاحتمال الأخير لتفسير تناقض فيرمي، والذي أميل له شخصيًا هو (نظرية الأرض الفريدة).. لا توجد حضارات أخرى.. نحن وحيدون تمامًا. ظروف الأرض كانت استثنائية وأدت لنشأة الحياة والحضارة وهذا يصعب أن يتكرر أو لم يتكرر قط...

تخيل الحياة من دون كائنات فضائية ولا أطباق طائرة.. لكم تغدو مملة.. وحدة مؤسية جدًا..

هذه فكرة قاسية لكني أراها خطوة مهمة للنضج البشري. منذ مئة عام كان العالم يتحدث عن الجنيّات ذوات الأجنحة.. وكتب

أديب مهم مثل أرثر كونان دويل كتابًا اسمه (قدوم الجنيات) تكلم فيه عن خواصها وعاداتها، وتمنى كل الناس أن يتحقق هذا الكلام.. اليوم نعرف أنه كلام فارغ.. كان هذا قاسيًا وقد أحبط أحلام كثيرين، لكن علينا أن نعترف بأن معظم صور الأطباق الطائرة التي لدينا إما مزيفة عمدًا أو هي خطأ ضوئي حدث بسوء نية. ولنتذكر أن فيلم تشريح الكائن في روزيل ملفق واعترف صانعوه بذلك..

لقد أقنعت نفسي منذ زمن أنه لا توجد كائنات على كواكب أخرى وأننا وحيدون معزولون تمامًا.. هذا يريحني وقد بنيت حياتي على هذا وكففت عن قراءة الأخبار السخيفة عن دوائر المحاصيل واختطاف الفتيات إلى المريخ، وظهور طبق طائر فوق أسبانيا. أؤمن أن البشرية تقدمت وهذا سوف يجعلها تلقي بقصص الأطفال التي تزين أغلفتها رسوم أطباق طائرة من النافذة وتتفرغ لشأنها الخاص. فقط لو نزل طبق طائر في شارعنا وخرج منه رجال خضر لهم هوائي واختطفوني لكوكبهم، عندها سأعرف أنني كنت مخطئًا لكن على الأقل لن أكون هنا لأعتذر!



رمضان جانا

لهذا الشهر رائحة، ولهذا الشهر صوت.. وله شخصية كاسحة حفرت الذكريات لدى كل واحد منا. لو لم يكن لديك فيض من الذكريات يتعلق برمضان فأنت على الأرجح لست مصريًا..

لرمضان صوت. لا شك في هذا، وأنا أضع على رأس قائمة الأصوات صوت الشيخ محمد رفعت الرهيب المزلزل، القادم من عوالم يعرفها هو وحده، والذي تقشعر لسماعه وتنتمش. بعد هذا يأتي صوت تواشيح النقشبندي.. هذه تواشيح قد استطاعت أن تكون هي صوت رمضان بجدارة، وكل مصري يعرف الجو الذي تبمثه كلمات مثل (يقول أمتي. يا رب أمتي).. أو صوت تواشيح ما قبل صلاة الفجر، مع صوت من يقول بصوت عال ممطوط: *اللهم صل على حضرة*

النبي ي ي ي.

يمكن بشيء من التحفظ أن تضيف أصواتًا أخرى: في طفولتي كان هناك ارتباط خاص بصوت القلي أو التحمير القادم من المطبخ والمرتبط بأمي. الأم المصرية المعتادة تقف في الحر وسط الأبخرة الخانقة، كأنها هكتور في حرب طروادة. وكانت تعترف لي كثيرًا انها تتلذذ جدًا بهذا الشعور: أبناؤها صائمون ونائمون بانتظار المدفع بينما هي تحارب في المطبخ وحدها. ثم المدفع الذي كان يرج البناية رجًا مع صوت الجندي (الحمش) الذي يحسب أنه يحرر القدس شخصيًا.. لماذا لم تعد البنايات ترتج بصوت المدفع؟.. صوت ثلاثي أضواء المسرح قادمًا من التلفزيون يردد (بايم بايم) التي لم أفهم معناها حتى اليوم، ثم أغنية حزينة لشادية في الراديو تبكي على النصيب والناس المجاريح، وشويكار تمط الألفاظ وتعابثها بشكل يجعل وجه أبي يحتقن غيظًا وهو يرشف الحساء، ثم جاء صوت نيللي ثم صوت شريهان، ثم شعر الناس في لحظة أنها لعبة سخيفة وفقدوا اهتمامهم. على أننا نلاحظ أن فوازير ثلاثي أضواء المسرح كانت ساذجة جدًا، ومن الواضح أن معظم الحوار كان يرتجل ساعة

التصوير، فقيرة الإمكانيات لحد لا يصدق، وكانت جوائزها من نوعية ساعة اليد والدراجة، وحلولها كانت صعبة جدًا (أذكر فزورة تدور حول هروب رونرفورد للولايات المتحدة وفزورة حول لقاء هانيبال بسكيبيو الأفريقي!). مع الوقت صارت الفزورة أكثر شياكة وصارت حلولها في غاية الهيافة على غرار (ما هو الشيء الذي يحرق ونطبخ عليه طعامنا؟). وصارت الجوائز لا تقل عن أطنان ذهب وشقق كاملة التجهيز.. لقد ازدادت الأشياء أناقة وتفاهة معًا بمرور الوقت. صار المظهر أهم شيء في الكون.

لن أنسى رمضان الذي توقفت فيه فوازير ثلاثي أضواء المسرح في اليوم العاشر، لأننا عرفنا لدى عودتنا من المدرسة أن الجيش المصري عبر قناة السويس. وقضينا الليل نفكر في هؤلاء الأبطال الذين يحاربون في صحراء سيناء في هذه اللحظات بالذات تاركين أهلهم يذوبون قلقًا عليهم، وعند الفجر راح البيت يرتج.. لكنه ليس ارتجاج مدفع الإفطار بل ارتجاج المدفعية المضادة للطائرات في مطار محلة مرحوم القريب. رائحة البارود تمتزج بهواء الفجر النقي وتتسلل لأنوفنا فتتقلص أحشاؤنا..

من ضمن اصوات رمضان المهمة جدًا صوت زوزو نبيل تقول وهي تتثاءب: (مولاي) في ألف ليلة مع موسيقا كورساكوف الساحرة. يمكن القول بلا مبالغة إن كورساكوف صنع جزءًا حميمًا من تراثنا.

أما عن رائحة رمضان فحدث بلا توقف.. رائحة مصر ذاتها.. رائحة الأحياء الشعبية وماء الورد الذي يذوب في الماء المثلج ويقدم للمصلين في المساجد بعد الصلاة.. رائحة الكنافة والقطائف وهما في مرحلة العجين الأولى. ثم السحور الذي تقاوم فيه النعاس بالقوة، يختلط برائحة الشمع الذائب في فانوس جميل من الصفيح صنعه عم شحتة أو عم بيومي في زقاق ما من (درب الأتر).

"أكل حتى الفجر.. نوم حتى الظهر.. خناق حتى العصر.. ترقب حتى المغرب".. هكذا وصف الساخر العبقري محمد عفيفي صيام أغلب الناس، وهي مقولة ما زالت قادرة على جعلي أبتسم ..

قلت في مقال قديم إنني عشت رمضان في مختلف الفترات.. رمضان في يوليو وأنا أعمل في تلك القرية المجاورة لكفر الزيات، عندما تركب أربع مواصلات يوميًا وتعود لدارك منهكًا ليست في

جسدك قطرة ماء واحـدة.. تنـام كالقتيـل وتـصحو لتكتـشف أن ثـلاث ساعات ما زالت تفصلك عـن كـوب الماء المثلج لأن موعـد المغـرب هـو الثامنة مساء! لم أعرف أنني سأعيش حتى تدور العجلة من جديـد، لكن على الأقل لا أضطر للسفر في الحر! في ذلك الوقت كنت أعتقد أنـه عندما يدور رمضان دورته من جديد سأكون نسيًا منسيًا.

إغراء شديد يدفعني لأن أقول إن رمضان لم يعـد هـو رمـضان. يبدو أن هذه غريزة قوية عند البشر تشبه الطعام والجنس.. أن تجلس لتندب ضياع الماضي الذي كان رائعًا دائمًا. نغمة (لم تعـد الأمـور كمـا كانت) شهية جـدًا. سـأقاوم بـصعوبة ألا أغرقـك في تفاصـيل كهـذه.. حتى المقالات من طراز مقالي هذا (كنا نفعل كذا وكذا في رمضان.. كـان أبي يفعل كذا.. لم يعد لشيء ذات المذاق.. الخ).. حتى هذه المقـالات صارت تثير سأمك لأنك قرأتها ألف مرة من قبل..

لقد امتد بك العمر لترى فوانيس رمضان العجيبة الـتي تعمـل بالكهرباء والقادمة مـن الـصين.. ظهـرت فـوانيس علـى شـكل بـاربي وتغني (العنب العنب)!.. ثم ظهر المفتش كرومبو.. هـذا العـام بـدأ

سبونج بوب يظهر في كل مكان. هناك (عك) غير عادي في هذا، فالخلط بين شخصية كارتون غربية وأثر فاطمي موغل في عراقته أمر مشين. يجب أن يكون الفانوس من صفيح سيئ اللحام يتفكك بسهولة، وعليه زجاج ملون، ويشتعل بشمعة.. ويحرق يدك الصغيرة. غير هذا سخف..

رأيت بوجي وطمطم في رمضان ورأيت فوازير شريهان وكل حيل الكاميرا الخفية التي تهدر كرامة المرء وتستفزه وتثير جنونه من أجل ضحكة بلهاء.. ثم رأيت رمضان من دون فوازير خالص (ولعل هذا أفضل شيء جديد).. ثم رأيت رمضان من دون تلفزيون مصري أصلاً لأن الناس هربت إلى الفضائيات منذ بدأ عصر الريادة..

ازدادت الطوابير أمام باعة الكنافة والقطائف وإن تضاعف الذعر في الوجوه والرعشة.. كأن كل واحد يخشى أن يفوته شيء سوف يظفر به الآخرون.. ولا شك أن الناس كذلك صاروا أكثر شراسة وعدوانية، ولعلها أخلاق الزحام. أخلاق الزحام تجعلك تشعر بقلق متزايد من أن رغيفك ليس مضمونًا وهناك من سيخطفه في أي لحظة.

وقد لاحظ أحد الصحفيين أن كثيرين يفطرون قبل الآذان في موائد الرحمن، لأنهم يفتكون باللحم بمجرد جلوسهم!.. لو انتظروا الآذان فلربما اختطف شخص آخر اللحم!

في التلفزيون، إعلانات السمن هي هي.. إعلانات الشاي هي هي.. في زمني كان إعلان الميلامين جامد ومتين له شجن وسحر خاص، وبعده كان إعلان (شهادات الاستثمار. الفايدة متزايدة)... مع الوقت أصابنا الذهول عندما رأينا إعلانات عن اختراع اسمه التلفزيون الملون. لسبب ما كانت إعلانات التلفزيونات تكثر في رمضان كأنها تحركك لشراء تلفزيون قبل آذان المغرب. وكانت هناك سلسلة إعلانات الفنان حسن عابدين الشهيرة: يا ترى ما هو سر (.....)؟ الآن تسللت إعلانات خطوط الموبايل..

نفس الجلسات لنفس الفنانين ونفس القالب.. عندما أرى هذه الجلسات أشعر بأنهم يقولون لنا: "هكذا يتكلم أسيادكم وهكذا يمزحون.. هذا هو الشيء الوحيد الجدير بالمشاهدة يا اولاد الفقرية".

المسلسلات فقدت مذاقها القديم.. حاولت أن أتابع بعضها فلم

أقدر. كانت الكثرة تغلب الشجاعة لكنها اليوم تغلب التميز. مستحيل أن تتابع 9889798 مسلسلاً كل يوم، وتحتفظ بسلامة عقلك وتوازنك النفسي.. قائد الفرس يحاول الفوز بالأسيرة العربية الحسناء لنفسه.. ثم المسلسل التالي حيث يسرا تكتشف مؤامرة للتجارة بأطفال الشوارع.. المسلسل الثالث والأب يكتشف أن ابنته تقابل (عادل).. المسلسل الرابع حيث يقرر المطاريد الصعايدة أن يخضعوا لـ (حمدان) صاحب أكبر شارب فيهم.. المسلسل الخامس حيث يكتشف الباشا أن الصحفي الذي يهاجمه في مقالاته هو (إبراهيم)..

في نهاية رمضان تكون أحداث المسلسلات قد تداخلت تمامًا.. قائد البيزنطيين ينتظر عودة البنت (هالة) من الكلية لأنه يعتقد أنها تزوجت عرفيًا من زعيم المطاريد. سيف الدين قطز غاضب جدًا لأن المستند المهم قد اختفى وهو يخشى أن يصل للنيابة، وهو يعتقد أن شجرة الدر تتعاطى المخدرات، والباشا يحب منى لكنها تمضي أكثر الوقت في الديسكو..

هناك كذلك تلك الظاهرة التي تفاقمت منذ أعوام : حالة تقمص جان دارك لدى الفنانات الكبيرات، ونفس الكلام الفارغ عن (بنتك اتأخرت في الكلية يا ست هانم) و(المستند ده لو وصل النيابة يا مراد بيه كلنا حنروح ورا الشمس) والفتيات اللاتي يصحون من النوم بكامل مكياجهن، والميزانسين الأبله الذي يصر عليه كل المخرجين والزووم الذي ينقض على وجه كل شخصية وهي تنهض لتأخذ دورها في الكلام، وإضاءة التنعيم على وجه سميرة أحمد وفيفي عبده ونادية الجندي التي تخفي التجاعيد وأي تعبير تمثيلي ممكن، والتمثيل غير الرديء غير الجيد الذي يفي بالحد الأدنى دون دراسة حقيقية للشخصية.. شخصية ايه؟.. من الواضح أنهم قرءوا عبارات الحوار قبل التصوير بعشر دقائق، ومحمد صبحي الذي يعتقد أنه مصر فلم يعد ينطق إلا بالمواعظ والمُثل وهو ينظر حالمًا في عدسة الكاميرا، كأن الفنان الكبير يجب أن يقول كلامًا كبيرًا وكأن أدوار الشر والخلل النفسي لا تليق به..

تعال نخرج إذن ما دمنا سئمنا التلفزيون..

هناك قطاع من المدينة لا ينام أبدًا ويستهلك كمية أضواء تكفي لإضاءة لاس فيجاس كلها.

ثمة اختراع جديد اسمه الشيشة على المقاهي طيلة ليالي رمضان، واختراع جديد اسمه المرأة التي تدخن الشيشة لأن رجلاً أحمق يعتقد أن هذا مثير جنسيًا، برغم أن هذا المشهد يرتبط في ذهني بالمعلمة (عدلات) بتاعة المدبح فقط.

ما هي المتعة غير العادية في إمضاء ساعة تلو أخرى على المقهى وسط سحب الدخان والضحكات، والغريب أن هذا يمتد حتى صلاة الفجر يوميًا.. وهذا يذكرنا بالعبارة الشهيرة التي بدأت تظهر في الصحف في السبعينيات : "سحور بارتي راقص على أنغام الموسيقا".

مئات الأمثلة تجعلني أتساءل: هل تغير رمضان حقًا وفقد مذاقه القديم الحبيب؟.. أم إنني تغيرت ونبلت براعم تذوقي؟.. ربما كان الاثنان معًا..

على الأقل ما زال الشيخ رفعت والنقشبندي بصوتيهما الأثيريين القادمين من عالم آخر.. ما زالا في مذياعي وأرجو ألا يقرر

أحد إلغاءهما يومًا ما على سبيل التجديد.. ما زال صوتا عبد العزيز محمود وعبد المطلب يقولان : مرحب شهر الصوم مرحب.. ورمضان جانا. عندها فقط أتصالح مع الطفل في داخلي وأبتسم.



حارس البوابة

نسرين كانت فاتنة الدفعة وحلمها. أنفاسها فراشات تتراقص في ضوء القمر الشاحب. كلماتها قطرات من العطر تنسكب على روحك. عيناها نافذتان ترى من خلالهما لمحة عن الجنة. خطواتها زحف الربيع وسط أراض غمرها الثلج في أصقاع سيبيريا.. عندما ينتهي الزحف سيكون السوسن والنرجس والتيوليب قد ملأ الممرات كلها، وسوف تخرج الغزلان تتواثب.

سل أي ذكر شارد في دفعتنا عن سبب شروده.. أو لا تسل. قل هي نسرين ولسوف تكون مصيبًا في 99٪ من الحالات. لا تسأل أي شابين يتشاجران في دفعتنا عن سبب الشجار.. يتشاجران بسبب نسرين طبعًا، وكل واحد يتنطع زاعمًا أنها نظرت له وابتسمت..

عندما ترى هذا الفتى المجد ذا النظارة السميكة منهمكًا في تبييض المحاضرات، والعرق يسيل على جبينه، وهو يستعمل القلمين الأخضر والأحمر.. فلا تتعب نفسك.. إنه يبيض المحاضرات من أجل نسرين. سوف يناولها كراس المحاضرات دون ان ينظر في عينيها ويفر... على الأرجح ستكون هناك قصيدة كتبها في آخر صفحة يشرح فيها كم أنه مولع بغزال غنوج لا يكف عن الفرار وسط الأحراش..

سوف يشرح الأستاذ محاضرته ثم يتوقف في لحظة بعينها. هذا بالطبع عندما تقع عيناه على نسرين الجالسة في أول صف. سوف يتلجلج وتتوه منه الأفكار. بعد المحاضرة سوف يناديها ويعرض عليها خدماته.. إذا عجزتِ عن فهم أي شيء فلا تترددي.. تعالي فورًا..

يمكن القول بلا مبالغة إن 90٪ من شباب دفعتنا يمشطون شعورهم أمام المرآة ويحلقون الذقون بسبب نسرين... يمكن القول إن أي بذلة أو ربطة عنق أو قميص غالي الثمن تم شراؤه ونسرين في البال.

كنا في كلية الطب، لهذا يمكن أن أؤكد لك أن المرضى الذين نمر عليهم في العنابر يغدون أفضل وأصح.. لكنهم كذلك يتظاهرون بالمرض أكثر، ويئنون حتى تشفق عليهم نسرين.

فقط عندما تغيب نسرين نكتشف أنها شمس وأن هناك نجومًا لم نكن نراها.. هناك هالة وهناك ليلى وهناك هيام وهناك نجوى.. إنها تحجبهن جميعًا بوهجها برغم أنهن لسن قبيحات.

نسرين كانت الأنثى الخالدة..

وكان عماد هو صاحب البوابة.

لم يكن واحد في دفعتنا يجهل أين بيت نسرين، وكنا نمر هناك بلا سبب واضح. فقط نتخيل ما يوجد خلف هذا الباب. بالطبع ليست شقة عادية، بل هناك يقف العبيد ضخام الأجساد يصبون الخمر والرحيق في كئوس من أكمام الأزهار، بينما ترقص العذارى حول الطواويس، والنمور الناعسة تراقب هذا كله، والقيان القادمات من أرض بونت يحركن المراوح حول نسرين. وفي الحلبة يصطرع الليل مع النهار أو يصطرع المحيط مع الصحراء لتسلية سيدة الساحرات..

لابد أن هذا كله بالداخل.

اكتشفنا في ذعر أن صاحبنا (عماد) يسكن في ذات البناية!

نهارك اسود!.. أنت تعيش في زانادو شخصيًا؟.. تنام هناك وتأكل هناك؟

كان عماد فتى قصيرًا كثير الصخب والضوضاء، كأنه جرو صغير، وكان مولعًا بالتدخل فيما لا يعنيه. ويحب أن يشعر بالأهمية. اكتسب بالطبع أهمية شديدة جدًا، وقد تصرف الجميع معه باعتباره (هرمز) رسول الأوليمب.. هرمز الذي يذهب إلى آلهة الأوليمب ويتكلم مع زيوس ويمزح مع فينوس، ثم ينزل لنا من جديد.. اعتبرناه كذلك حارس البوابة.. إنه المدخل إلى عالمها..

كنا نلتف حوله في شغف..

أحيانًا كان خمسة منا يتبعونه في كل مكان:

ـ"هل نسرين تأكل مثلنا؟.. هل تنام؟.. هل لها أب وأم؟"

ـ"هل تدخل دورة المياه؟.. هل ترسل ثيابها للكواء؟"

كان هو يتكلم في ثقة. نعم هي تأكل.. هو متأكد من هذا لأنه رآها ذات مرة وفي يدها شطيرة.. هي كذلك تدخل الحمام. سمع صوت السيفون ذات مرة... إن حجرتها تقع فوق حجرته..

-"يا نهار اسود!.. يا ابن المحظوظة!"

عرفنا كذلك أنها تحب فيروز وأنها تلعب التنس أحيانًا.

كان أحيانًا يضع ساقًا على ساق ويقول في غرور:

-"نسرين مسرورة.. راقت لها تلك المزحة من عصام أمس.. عندما انزلق على السلم وتهشم رأسه.. لقد ضحكت كثيرًا.."

نتصايح.. يا لك من محظوظ يا عصام!.. صحيح أنك في المستشفى وأن فقرات عنقك تهشمت لكن نسرين مسرورة منك. وكيف عرفت هذا يا أخ عماد؟.

يقول في ثقة:

-"قالت لي هذا بالهاتف.. ظللنا نتكلم نصف ساعة أمس"

هكذا نسقط أرضًا ونتلوى غيظًا.. نصف ساعة؟.. تتكلم مع

نسرين نصف ساعة؟. بالهاتف؟.. هناك واحد من الدفعة اتصل بها في العاشرة مساء. سمع صوتها تقول (آلو).. هذا الفتى أصيب ببله مغولي ونوع من الخبال، ويبدو أن أهله يتصلون ببريد أخبار اليوم طلبًا لعلاجه في الخارج على نفقة الدولة..

كانت أهمية عماد مطلقة، وبشكل ما كنا نشعر أنه قادم من عالمها.. من رائحتها.. تعرفون قصة الجائع الذي وقف خارج مطعم كباب يلتهم رغيفاً من الخبز. السبب أن الرائحة كانت تكفيه..

حتى جاء اليوم الذي لم يتوقعه أحد قط. لقد لعبت نسرين التنس فسقطت أرضًا وكسرت رجلها..

بالطبع أطلق الجميع الآهات. البعض يبالغ طبعًا فلا تصغوا لذلك السخيف الذي يقترح أن يصير اليوم يوم حداد قومي.. فقط كان على الجميع مواجهة حقيقة أنها لن تجيء لفترة لا بأس بها. سوف تتحول الكلية اللعينة إلى قفر تنعق فيه الغربان.. نظرنا لزميلاتنا فشعر بعضنا بأنهن لم يكن قبيحات لهذا الحد، أما البعض الآخر فشعر بأنهن قبيحات كالأبالسة..

مرت الأيام وعماد يلعب دوره كحارس بوابة النعيم. إنها اليوم أفضل.. اليوم تمشي على عكاز.. كمال.. إنها تريد أن تبيض لها محاضرات وظائف الأعضاء التي لم تحضرها.. لا تطلبوا مني شيئًا أيها الفاشلون فوقتي لا يتسع لشيء.. ألا تريد أن ترسم لها كل صفحات كراس علم الأنسجة يا هاني؟.. لا مشكلة.. سوف أخبرها بذلك.. سوف أقول لها إن هاني يعتذر بشدة لأن وقته أثمن من أن يضيعه في رسم هذا الكراس.. هاني كذلك يقول إنها مهمة شاقة وقذرة، وهو قد رسم الكراس الخاص به بصعوبة..... هه؟.. تقول إنك سترسم؟.. ليكن.. وأنا لن أخبرها بشيء..

هكذا تمضي الأيام..

وفي يوم جاء عماد إلى الكلية فجلس على السور.. عند تلك النافورة الجافة التي تمثل فلاحة مصرية تشوه وجهها. التففنا حوله كالعادة لكنه اشار إلى ثلاثة منا.. كنت انا منهم..

قال بصوت ثابت جهوري:

-"أنتم الثلاثة مهتمون بالأدب وتكتبون القصة القصيرة.. أريد

الكلام معكم"

وقفنا أمامه مرتبكين، فقال لنا :

ـ"نسرين رهينة المحبسين كما تعلمون.. محبس الجبس حول ساقها، ومحبس البيت.. تقول إنها تموت سأمًا وطلبت مني أن أجلب لها شيئًا يُقرأ.."

تطوع سامي بأن يحضر لها الإلياذة والأوديسا، أما أنا فوعدت أن أسرق مجموعة نجيب محفوظ كاملة من مكتبة أبي، بينما تطوع حسين بأن يضرب أخاه الصغير في عينه ويسلبه كل مجلدات ميكي التي يملكها..

ـ"لا. لا.."

قالها عماد وأشعل لفافة تبغ.. ثم أردف:

ـ"هي لا تريد أعمالاً احترافية.. هي تريد القراءة لكم.. قلت لها إنكم أدباء عظام وهي طلبت أن تقرأ لكم"

ثم أعطانا مهلة ثلاثة أيام نقدم له فيها ما نختاره من

كتاباتنا..

لم ادخل في حياتي أي مسابقة أدبية ولن أفعل، لكن هذه كانت أخطر مسابقة أدبية أدخلها وكان لابد منها. عدت لبيتي ورحت أنقب في أوراقي.. وجدت قصة معقولة عن شباب حاولوا خطف فتاة ثم أنقذها شاب نحيل ضعيف فوقعت في غرامه. جلست في مكتبي ورحت بخط رائع أبيّض هذه القصة.. أتخيل نسرين وهي تقرأ هذه الفقرة أو تلك.. تبتسم هنا.. ترتجف هناك.. تقشعر هنا.. هناك سطور كتبتها خصيصًا كي تراها. نثرت دعابات كي تضحكها.. سوف تقرأ القصة ثم تغمض عينيها.. ترتجف.. يا الله.. ما هذه الروعة؟.. ثم تفتح الغلاف لتقرأ اسمي. ترفع سماعة الهاتف وتتصل بعماد: لم أكن أعرف أن صديقك بهذا العمق.

عندما تفك الجبس سوف تعود للكلية.. سوف تشق طريقها وسط الزحام ووسط المهنئين. إن عينيها تبحثان عني.. في النهاية تجدني فتتجه نحوي وهي ترتجف.. وبعد ذلك؟ بصراحة لا أعرف.. لندع كل خطوة تحدد الخطوة التالية..

هكذا فرغت من القصة، فوضعتها في ملف أنيق وحملتها لعماد صديقي..

في الوقت نفسه كان حسين يسلم إنتاجه للجنة الامتحانات المكونة من عماد. قال لي في غيظ:

ـ"أنت لن تربح.. لن يروق لها ما تكتبه.. قصصك سخيفة وسطحية. قرأت قصة لك من قبل"

قلت له في ضيق:

ـ"أنت لا تستطيع كتابة سطر واحد من دون تسعة أخطاء لغوية قاتلة"

ـ"نحن نتكلم عن الأدب وليس هذا امتحان اللغة العربية للثانوية العامة"

بدأ عماد يتسلم الأعمال، بينما قضينا نحن يومين من الحلم.. سوف تبكي.. سوف تتصل بي طالبة الزواج.. سوف تحدد لي موعدًا في مركب نيلي..سوف تفر من بيت أهلها وتأتي لبيتي ليلاً وتتوسل

لي كي نتزوج..

في النهاية استدعانا عماد لمناقشة الأعمال..

ذهبنا لبيته غير مصدقين أننا في ذات البناية التي توجد بها نسرين، وأن قدميها تخطوان على هذه الدرجات عدة مرات كل يوم.. كنا نتشمم الهواء في ذهول..

لابد أن هذه أروع لحظات عاشها عماد في حياته. لسبب ما جاء بصندوق من الورق المقوى مليء بثمار اليوسفي وكان يلبس جلبابًا أبيض، وتربع على مقعد في الصالون وراح يقشر اليوسفي في استمتاع.. ثم بدأ يشد شعر ساقه وهو يقول في غموض وخطورة:

-"قرأت الأعمال قبل أن أرسلها لنسرين"

تبادلنا النظرات.. حسبنا أنها قرأت الأعمال فعلاً.. تبين أنه جعل من نفسه رقابة ترشح ما يصل لها.. قال وهو يأكل اليوسفي:

-"طبعًا..في النهاية سوف أكون مسئولاً عن أي عمل خارج أو بذيء يصل لها.."

ثم بصق البذور وقال وهو يهرش ساقه المشعرة:

ـ"حسين كتب قصة شبه جنسية عن شاب ينفرد بالخادمة في المطبخ... عمل رقيع فاشل.. ولا أخفي أنني كنت أقرأ وأنا أشعر بخجل شديد.. هذه قصة مرفوضة ببساطة"

ولوح بالورق بطرفي إصبعيه ثم ألقى به جوار حسين.. لقد ألقى كلمته.. لن تمر هذه القصة عبر البوابة أبدًا.. على كل حال وافقته على هذا القرار. هناك هواية معينة لدى الفتيان هي أن يعرضوا وقاحتهم على الفتيات على سبيل طلقات الاختبار. يريدون معرفة إلى أي مدى يمكن أن تتحمل قبل أن تنفجر..

جاء دوري فلوح بقصتي في اشمئزاز:

ـ"خطف ومحاولة اغتصاب.. لن أعلق.."

وسقطت القصة ذات رائحة اليوسفي في حجري، ثم أنه أخرج قصة أخرى:

ـ"قصة سامي جيدة.. هي عن أب فقد ولده.. لكنها غير

متماسكة وحبكتها ضعيفة.. لهذا هي مرفوضة"

قال سامي محتجًا:

ـ"ظننت انك تراقب القصص أخلاقيًا ولا دخل لك بالمستوى الفني"

ـ"بالعكس.. المستوى الفني مهم جدًا.. قصصكم مرفوضة ولن أقدم لها اي شيء"

رحنا نرمقه وهو يلتهم اليوسفي وبدأت أفهم لماذا يقتل بعض البشر بعضهم.. هذا سهل جدًا.. الصعب هو أن تقاوم ذلك. أعتقد أن تهشيم عنقه كان أحب المناظر لنا نحن الثلاثة وقتها..

عندما اتجهنا للباب كاسفي البال.. استدرت أسأله في أمل أخير:

ـ"ممكن أن ألغي مشهد الاغتصاب بالكامل.."

ـ"سوف تضعف القصة دراميًا.. لابد من اغتصاب.. لكن لا يمكن أن أرسل لها قصة تتحدث عن الاغتصاب"

نزلنا السلم شاعرين بالمهانة والحيرة والفشل.. فكرت أن أقتل نفسي، ثم وجدت أنه من الأفضل أن أشتري شطيرتين من السجق من عند عواد، مع كوب شاي بالنعناع.. في الصباح سوف أنسى كل شيء.. وهو ما حدث فعلاً!

قصة مرعبة

دعونا نستعد أجواء قصص الرعب فقد تركناه منذ زمن، غير أن هذه القصة حدثت فعلاً بهذه التفاصيل الرهيبة، وإني لأنذرك أنها مخيفة جدًا لا تتحملها أعصاب كثيرين.

كان الأستاذ عبد الظاهر رجلاً محترمًا من مثقفي الستينيات. أنت لا تعرفهم جيدًا ولا تعرف عمن أتكلم، فأقول إنه ينتمي لمجموعة المثقفين الذين سادوا مصر في الستينيات، وأحدثوا الكثير من الحراك الأدبي، وآمنوا بالاشتراكية بشدة.. وبدا لهم أن المستقبل مشرق ساطع، ثم جاءت ضربة قاسية موجعة اسمها هزيمة 1967، فتقوقعوا.. وامتلك كل منهم اكتئابه الخاص، ومع الوقت رأوا

أحلامهم تضمحل ورأوا كيف انتصر رجال الأعمال وتجار الشنطة، والمسرح الذي كان يقدم مسرحيات يونسكو وسوفوكليس صار يقدم مسرحيات عجيبة تتضمن رجلاً صعيديًا يطارد قزمًا بمسدس، ورجلاً بالثياب الداخلية يتلقى صفعة على قفاه.. الخ..

لقد تغير العالم لكن الأستاذ عبد الظاهر لم يتغير. من أحاطوا به في أيام مجده عرفوا أنه لم يتغير. وكان من الطراز الوقور الذي يشرب الشاي في فنجان ويأكل بالشوكة والسكين، كما أنه لا يذهب لشراء ربع حلاوة من دون أن يحمل معه كتابًا عن (آليات النقد في أدب أمريكا اللاتينية)، والكتاب واضح يراه الجميع.. ويراه البقال فترتجف يده رهبة وهو يقطع الحلاوة..

كل الحي يعرف أن الأستاذ عبد الظاهر إنسان مثقف وعظيم، خاصة وهو لا يرتدي إلا البدلة وربطة العنق حتى لو كان ذاهبًا لرتق حذائه..

الحياة تزداد سوقية وفجاجة.. كل شيء يتغير.

هناك قصة لسومرست موم تحكي عن دبلوماسي بريطاني

متحذلق في جنوب شرق آسيا. تكون الكارثة في حياته هي أنهم يرسلون له مساعدًا لا يحترم أي شيء ليعمل معه. لا يحترم أي شيء معناها أنه يقرأ رواية بوليسية وهو يتناول العشاء، كما أنه يتناول العشاء حافي القدمين!.. هذا بالنسبة للدبلوماسي البريطاني شيء لا يمكن تحمله.. النتيجة هي أنه يخطط لقتل هذا المستهتر..!

الحقيقة أن الأستاذ عبد الظاهر يصلح جدًا لهذه القصة. والأسوأ أن ابنه المراهق الوغد لا يكف عن تعذيبه.. ابنه في التاسعة عشر، وهو يعيش مراهقته بشدة وحماسة.. يغني أشياء غريبة جدًا مثل (بوس الواوا دح..) وما هو أغرب..

كان الأستاذ عبد الظاهر يعتبر سماع أغاني فايزة أحمد نوعًا من التنازل، لأنه اعتادت سماع أم كلثوم.. هنا يأتيه من يغني عن الواوا.. لكن ابنه كان سعيدًا جدًا وراضيًا عن نفسه وعن الحياة.

الأستاذ عبد الظاهر أرمل كما هو واضح ويعيش مع ابنه في تلك الشقة، ومع الوقت انتهت المحادثات بينهما.. كل منهما يحب الآخر بشدة ولا شك في ذلك، لكنهما لا يتبادلان ما يكفي من الكلام..

ربما عشر جمل في الأسبوع أو أقل..

يقوم الأستاذ عبد الظاهر بطهي طعام الغداء.. إنه يستمتع بذلك.. ثم يعد المائدة بطريقة تدل على الرقي بلا شك. يجلس مع ابنه.. يراقبه وهو يأكل كالمسعورين ويمزق اللحم بيده، ثم يرفع سلطانية الحساء ويصبها في حلقه صبًا..

ـ"الحساء لا يشرب إلا بالملعقة"

ـ"بل أفعل مثل اليابانيين.. يشربون من السلطانية ولم يهلكوا أو يدخلوا جهنم بعد"

ثم يتبعها الوغد بـ (*شرييييييييييب*)..

هكذا تمضي الحياة.. الابن الوغد المستمتع بالحياة والذي يرى أن كل شيء ممتاز. والأب المغتاظ الذي يشعر بالحيرة وبأن الحياة سوقية أكثر من اللازم..

في ذلك اليوم الموعود كان الأستاذ عبد الظاهر وحده في البيت.. ابنه كان في الكلية.. وكان يعنى ببعض أمور الشقة وهو يلبس الفانلة

الداخلية مع سروال المنامة. دق جرس الباب فاتجـه ليفـتح نـاسـيًا أن يلبس شيئًا ..

هنـا فـوجئ بشيء يثـب في أحـضانه كأنـه قـرد مـشعر مبلـل بالعرق، وانهالت قبلات لزجة على خديه، بينما هناك من يردد وهو يلهث:

ـ"أنت لم تعد تسأل لذا قررت أن آتي لأعرف ما دهـاك.. أنـت لم تعد تسأل لذا قررت أن آتي لأعرف ما دهاك.. أنـت لم تعـد تسأل لذا................"

كان عبد الظاهر يحـاول فهـم: لماذا يـصرخ هـذا الرجـل بـلا توقف..

أخيرًا استطاع أن يعرف مـن هـو. هـذا هـو الحـاج مـدكور. في وقت ما كان الأستاذ عبد الظاهر مدير شركة، وكانت الـشركة تتعامـل مع تجار كثيرين.. ومن ضمن هؤلاء التجار الحاج مدكور. لقد قـرر أن يعد مفاجأة لصديقه القديم ويزوره. ودخل الحاج مدكور البيت وهو ما زال يردد:

-"أنت لم تعد تسأل لذا قررت أن آتي لأعرف ما دهاك.. أنت لم تعد تسأل لذا قررت أن آتي لأعرف ما دهاك.. أنت لم تعد تسأل لذا قررت أن آتي لأعرف ما دهاك"

ثم بدأ الرجلان يسترجعان الذكريات وهما يشربان الشاي الذي أعده الأستاذ عبد الظاهر. إن لهما تاريخًا طويلاً انتهى عندما خرج عبد الظاهر إلى المعاش، أما الحاج مدكور فهو ما زال يعمل وإن لمامًا.. سن مدكور أصغر بكثير..

هنا بدأ الأستاذ عبد الظاهر يستنتج اللغز وراء هذه الزيارة المفاجئة. لقد جاء الحاج مدكور ليسأل:

-"أعرف أنك كنت تسافر كثيرًا أيام العمل.. فهل أثر هذا السفر على رجولتك الفذة؟"

هكذا فهم..

كان كل من تعاملوا مع الشركة يعتبرون عبد الظاهر علامة يعرف كل شيء. والسبب طبعًا أنهم لا يفهمون حرفًا مما يقول. هكذا لاحظ الحاج مدكور أن أداءه كزوج لم يعد على ما يرام، لذا قرر أن

يزور عالم العلماء الأستاذ عبد الظاهر.. وهو بهذا لا يعتبره الأكثر علمًا بل كذلك يعتبره الأكثر فحولة.. هذا التقديس شبه الوثني أثار إعجاب عبد الظاهر بنفسه وانتفخت أوداجه..

وضع الأستاذ عبد الظاهر رجلاً على رجل وبدأ يتكلم في وقار.. يتكلم في فخر..

حكى للحاج مذكور كيف أن رجولة الرجل لا تقاس بالأعضاء ولكن تقاس بالطباع الرجولية فقط. حكى له عن أبحاث فيتامين (هـ) والدكتورة أنا أصلان وأطباء رومانيا العباقرة.. حكى له قصصًا غريبة عن قدرات جنسية مذهلة..

كان الحاج مذكور يصغي في انبهار وقد فتح فمه غير مصدق، وكله إيمان مطلق بأطباء رومانيا العباقرة وخصوصًا آنا أصلان..

طال الحديث..

وفي النهاية نظر الحاج مذكور إلى ساعته وأعلن أنه يجب أن ينصرف.. لماذا لا تتناول الغداء معنا يا حاج؟.. لا.. شكرًا.. يجب أن أسافر إلى السنبلاوين اليوم..

واتجه للباب وهو يردد بلا توقف:

-" أنت لم تعد تسأل لذا قررت أن آتي لأعرف ما دهاك.. أنت لم تعد تسأل لذا.........."

وعلى الباب انحنى ليلثم خدي الأستاذ عبد الظاهر من جديد. وخرج عبد الظاهر إلى مدخل البيت ليودعه وهو يهبط في الدرج..

-"سلامي لرامي الصغير."

قال عبد الظاهر ضاحكاً:

-"لم يعد صغيرًا.. واسمه ليس رامي"

-"لم يعد رامي؟.. هذا غريب.."

-"يا حاج... اسمه علاء منذ ولد.."

اختفى رأس الحاج وصوته.. هنا استدار أستاذ عبد الظاهر ليعود لشقته، لكنه اكتشف أن الباب مغلق!...

حاول أن يدير المقبض عدة مرات.. حاول ان يفكر بعقل..

لا يوجد مفتاح.. المفتاح داخل الشقة.. هذا من الأبواب التي تغلق بكالون (لاتش). لابد أن الهواء جعل الباب ينزلق. المشكلة الآن – فكر بعقل وهدوء – هي أنه بالفانلة الداخلية وسروال البيجامة وحافي القدمين!.. لا يوجد هاتف محمول لأنه داخل الشقة..

الفكرة جعلته يرتجف.. هذا جعله يدرك أنه لا فائدة من العقل.. لا فائدة على الإطلاق. لابد من العودة للذعر الأولي الوحشي. راح يهز المقبض ويهز الباب مرارًا بلا توقف..

ماذا يفعل؟

المشكلة هي أن الساعة الثانية عشرة ظهرًا.. لن يعود ابنه قبل ساعتين. سيظل واقفًا هنا ويراه الجيران كلهم.. الجيران الذين لم يروه إلا بالبذلة وربطة العنق..

راح يوجه الركلات للباب.. سمع بابًا ينفتح من تحت.. يجب أن يكون حذرًا لأن الضجيج سيجعل الجيران يخرجون..

يمكنه أن يقرع أي باب ويطلب مساعدة لاقتحام الباب.. أو يطلب الاتصال بابنه ليأتي.. لكن لا يمكن أن يتوقع إلا أن يقابل جارة

بثياب النوم ذهب زوجها للعمل وأولادها للمدارس، وقد بدأت في تقطيع الكوسة .. ماذا ستقول هذه الجارة وماذا ستفعل عندما يدق الجرس لتجد رجلاً حافي القدمين بالفانلة الداخلية؟.. حتى لو كان في سنه؟

لكن هل يظل واقفًا هكذا؟

سمع صوت خطوات فأدار وجهه للباب وتظاهر بأنه يحاول فتحه، بطرف عينه رأى سيدة شابة يعرف أنها تسكن في الطابق الخامس.. تصعد ببطء وريبة كما هو واضح.. تمر جواره.. تنظر له في شك ثم تواصل الصعود دون أن تبعد عينيها عنه. يا لشدة تدخل المصريين فيما لا يعنيهم!.. من حقه أن يلبس ما يريد فلماذا تعتبر أن من حقها التحرش به؟

بعد لحظات سمع صوت خطوات.. هناك طفل متشرد وغد قادم من أعلى. الطفل يغني ويصفر ثم ينظر له.. يمر بجواره فيبطئ من سرعة التصفير.. ثم يفر تقريبًا..

أين ابنه؟.. أين علاء هذا المراهق المتشرد؟.. كلية؟..

أضحكتني.. هل يمكن لوغد كهذا أن يذهب للكلية أو يعرف مكانها؟.. بالتأكيد هو في وكر قذر يمارس الفسق ويشرب المحرمات ويدخن الممنوعات، مع مجموعة من رفقاء السوء، ومع ألعن عينة من الفتيات الساقطات.. ثم يزعم أنه كان في الكلية ويطالب عبد الظاهر الأبله بدفع ثمن شهواته.. لقد ارتفع ثمن المذكرات.. الخ.. لماذا لا يعود هذا الخنزير؟.. إن يومًا واحدًا بلا خمر وحشيش ليس مستحيلاً.. فقط لينقذ أباه من هذه المذبحة... إنه شرير مثل أمه.. ومنحط مثل عمه.. سوف يدفع الثمن..

وفجأة يلين من جديد.. ليته يعود.. هذا الحبيب.. هذا الفتى الوسيم المنقذ..

لماذا لا يعود؟.. بالتأكيد قد مات.. يا حبيبي يا بني.. كم كنت رقيقًا مفعمًا بالحياة..

يشعر ببرد رخام السلم تحت قدميه الحافيتين، وتؤلمه قبضتاه. الشقة بالداخل.. الشقة الجميلة المنظمة بما فيها من كتب.. بما فيها من أطعمة.. بما فيها من ثياب وجهاز تلفزيون.. تبدو له

الآن مثل حلم إسرائيل بأرض الميعاد...

لن أكرر نفسي... هناك ألف جارة صعدن السلم أو هبطنه. هناك ألف جار نظر له بشك أو ألقى عليه التحية. هناك ألف طفل نظر له في حيرة. هناك قط مر بجواره وراح يرمقه.

ليس من المعتاد أن تجد رجلاً يقف أمام باب شقة ووجهه للباب، وهو ببنطال البيجامة والفانلة الداخلية.. خاصة إذا كان رجلاً وقورًا مسنًا أشيب.

لابد أن ستة أعوام قد مرت به وهو في هذا الرعب المقيم..

لا يعرف متى ولا كيف سمع خطوات على السلم، ثم سمع من يغني (بوس الواوا دح).. لا يعرف متى شعر بيد ابنه وهو يسأله عن سبب وقوفه هنا:

ـ"الهواء.. المفتاح.. الباب..."

لم يفهم الفتى شيئًا لكنه على كل حال فتح الباب بمفتاحه فدخل أبوه.. ووقف ينظر للشقة التي حسب أنه لن يراها بقية

حياته..

قال الفتى وهو يطوح بحذائيه:

-"ما زلت لا أفهم.. لماذا وقفت شبه عار أمام الباب.. هل شعرت بملل لهذا الحد؟"

لكن الأب لم يرد..

عندما دقق علاء النظر رأى مشهدًا لم يره من قبل قط. وحسب أنه يهذي بسبب نور الصالة الخافت..

كان أبوه المسن يرتجف ويبكي....



أماركورد

أماركورد هو عنوان فيلم شهير لفيليني، وترجمته (أنا أتذكر). هذا المقال ليس عن فيلم فيلليني، ولكنها مجرد طريقة لجذبك بعنوان غريب. قد مر عام تقريبًا على ذلك اليوم الذي أتذكره كأنه حلم. السبت 2 إبريل 2011.. بعد أشهر متواصلة من صعوبة التنفس والربو الذي لم أعهده من قبل. الربو من الأسباب القوية التي جعلتني من القلائل الذين لم يذهبوا لميدان التحرير قط، لأن الغاز هناك أكثر من الهواء. كنت منهكًا بشكل متواصل حتى صرت أحمل هم المشي في الشقة أو صعود الدرج. قللت التدخين إلى معدل غير مسبوق ولكن لم أر نتيجة واضحة.

يوم 2 إبريل عدت من الكلية مرهقًا..كانت منال زوجتي في المطبخ تنهي إعداد الغداء. همست : ألا يا عتبة الساعة.. أموت الساعة الساعة. لم تفهم ما أعنيه فقلت لها إنه بيت شعر لأبي العتاهية كان يمقته لأنه ضعيف المستوى. جلسنا لتناول الغداء.. ثم.. شعرت للحظة بتلك الضربات المختلة من قلبي.. نوع من النغبشة الكهربية الغريبة.. لا تتوقف.. قلت لنفسي سوف تتوقف حالاً. اصبر..

(ظلام)

أفتح عيني لأجد دائرة من الوجوه الباكية.. منال.. محمد.. مريم.. كلهم يتوسلون لي كي أفتح عيني. ماذا حدث؟.. لماذا أنا على الأرض؟.. لماذا أنا واهن هكذا؟.. هل نحن في النهار أم الليل؟.. لماذا يبكون؟..بدا لي هذا سخيفًا.. كما أن صديقي د.رائف وصفي كان جالسًا في الصالة مما بدا لي غريبًا.. هو لا يأتي من دون موعد أبدًا...

فهمت ببطء أن قلبي توقف عن العمل تمامًا وسقطت على الأرض، وقمت ببعض التشنجات اللطيفة جدًا. زوجتي طبيبة

وتعرف ما تقول. أما عن محاولات محمد للاتصال بالإسعاف فقد فشلت تمامًا كالعادة، وهكذا اتصل بصديقي رائف ليتصرف..

ما لم أعرفه كذلك هو أن في ذات اللحظة توفي صديق عزيز اسمه رفعت فوزي بنوبة قلبية. كان رائف على وشك الاتصال ليخبرني بذلك! ما معنى هذا؟

طلبوا مني أن أذهب للطبيب لكني كنت أعرف شيئًا واحدًا: لو لم أنم الآن لنصف ساعة مع كل هذا التعب، فسوف أموت. توسلوا لي لدرجة أنهم تمسكوا بقدمي لكني صحت: أتوسل لكم أن تتركوني أنام.. أنتم تقتلونني!

ودخلت إلى الفراش لأرقد.. وغبت عن العالم. فقط كنت أفتح عيني من وقت لآخر لأجد أن مريم ترقد جواري ممسكة بيدي. لقد قامت بعمل ورديات مع محمد للنوم بجواري وإمساك يدي، حتى لا أنزلق إلى العالم الآخر.

بعد ساعة ونصف نهضت من النوم فأخذت (دوش) وجاء رائف من جديد بسيارته ليوصلني للطبيب.. الطبيب هو الدكتور أيمن

السعيد أستاذ أمراض القلب بطب طنطا، والذي صار أول عميد منتخب بعد ذلك. ذهب رائف ليبحث عن مكان يركن فيه السيارة، وصعدت لعيادة الطبيب بلا جهد سوى أن ساقي كانتا رخوتين فعلاً. جلست أنتظر دوري ثم ناداني المرض لأدخل.. دخلت منال ثم تبعتها وهنا شعرت بالنغبشة الكهربية اللعينة إياها، فقلت لها : لقد عاد!

(ظلام)

أنا في سيارة يقودها غرباء تنهب شوارع طنطا في الظلام. منال تجلس ورائي وتسند رأسي حتى لا يقع، والغريب أن د. أيمن السعيد معي في السيارة. يتكلم في الهاتف : أريد مقعدًا على باب القسم فورًا. أعرف أن قلبي توقف مرة أخرى وسقطت، وهرعت منال صارخة تقتحم غرفة الكشف.. جاء الطبيب ووضع جهاز الموجات الصوتية على قلبي ليكتشف أنه رخو تمامًا.. هذا ارتجاف بطيني وهو يختلف كليًا عن الارتجاف الأذيني بتاع حسني مبارك (الذي يدللونه بارتجاف أوزوني لسبب ما).

ليس من المعتاد أن يحتفظ طبيب القلب بجهاز صدمات

كهربيـة في عيادتـه، ولـيس مـن المعتـاد أن يكـون الجهـاز مـشحونًا، والأغرب أن هذا الجهاز جاء للعيادة منذ أيام معـدودة لا أكثـر. المهـم أنه كان موجودًا وأنـه وضـع القطـبين علـى صـدري و... بـوم! ... عـاد القلب ينبض..

ثم جاء دور العثور على سيارة.. سـيارة الطبيـب غـير متاحـة الآن ورائف ليس هنا.. النتيجة أنـه بحـث عـن أي أشـخاص يقبلـون نقلنا للمستشفى، وعندما أفقت كانت السيارة تدخل إلى مستشفى طنطا الجامعي – عناية القلب. وكان د. أيمن يـدفع المقعد بنفـسه لاهثًـا.. وعندما رقدت على الفراش أخيرًا ووضعوا الأقطاب على صدري عرفـت أن الوضع خطير جدًا.. قناع الأكسجين.. القسطرة.. الوجـوه الـساهمة من حول الفراش.. لكني غير مهـتم.. لا أريـد سـوى النـوم.. أريـد أن انااااام..

أصر د. أيمن على أن أوجد في هذه العناية المجانية لأن الأطباء قريبون جدًا..

عندما رقدت في الضوء الخافت بعد ذلك، كنت أفكر في أحداث

اليوم. كان من الوارد جدًا أن يكون موعد دفني هو الأحد 3 إبريل بعد صلاة الظهر.

إذن كان هذا هو الموت.. بدا لي بسيطًا مختصرًا وسريعًا.. بهذه البساطة.. أنت هنا.. أنت لم تعد هنا.. والأغرب أنني لم أر أي شيء من تجربة الدنو من الموت NDE التي كتبت عنها مرارًا.. تذكرت مقولة ساخرة قديمة هي أن عزاءك الوحيد إذا مت بعد الخامسة والأربعين هو أنك لم تمت شابًا!

بالنسبة لي مت مرتين في يوم واحد، ولم يكن الأمر صعبًا جدًا.. فجأة انقطع الفيلم في لحظة بعينها ثم عاد بعد حذف عشر دقائق. جميل جدًا ألا تعرف أنك تموت ولا تتوقع ذلك. فجأة أنت هنا.. فجأة أنت هناك مع السر الأزلي، وتدخل عالم القبر والكفن وانتفاخ البطن وسقوط الأنف.. ويخافك الأحياء.. لكنه بلا شك أفضل من معاناة صعوبة التنفس أيامًا وأنت موصول بجهاز تنفس، أو الشلل عدة أشهر وتلويث الملاءات، أو السقوط تحت عجلات قطار أو ميكروباص مجنون.. كانت ميتة جيدة نظيفة برغم كل شيء..

شاء الله ألا يفقد الصغيران أباهما الآن..

مرت علي الأيام هناك في قسم القلب، وبدأ اللغز يتضح نوعًا... عضلة القلب متضخمة بسبب ارتفاع ضغط الدم وهذا جعلها غير مستقرة تمامًا.. ربما عملت أدوية الربو الكثيرة على إصابة العضلة بالجنون، وربما هو نقص في البوتاسيوم أم المغنسيوم. المهم أنني كنت أريد أن أنام.. لكن هذا كان مستحيلاً لأن صديقًا أو قريبًا كان يأتي في كل خمس دقائق.. وفي الليل تبدأ الممرضات في الشجار والكلام بصوت عال، ومع الصباح يصل الزوار ثانية حتى طلبت من الأطباء كتابة ورقة تعفيني من الزيارات.. كنت أنهار فعلاً وصرت مرهقًا والعالم صار شفافا غريبًا.. أريد النوم بأي ثمن. صديقي د.إيهاب نائل فهم المشكلة فورًا فجلب لي شريطًا من الأقراص المنومة، ومع أول أقراص غبت في عالم سحري.. لدرجة أنني صرت أسمع موسيقا الكاليبسو، وأرى راقصات من الكاريبي في العنبر، وفوق الفراش هناك ببغاء ملون يراقبني، وخيل لي أن الممرضات يلبسن قبعات قش عملاقة (لا أمزح). لقد أنقذ إيهاب حياتي فعلاً.

لم أكن في ذلك الوقت أعرف ما يقال من ورائي..

منال زوجتي قابلت د. أيمن السعيد وقابلت أصدقائي تستشيرهم، وكانت تفعل ذلك عندما يأتي محمود ابن أختي لزيارتي فيأخذ مكانها. كانت هناك مشكلة مزمنة تتعلق بي لأنني لا أتحسن برغم كل المحاولات.. لا توجد طريقة لجعلي أعود للبيت ثانية.. لا ضمانات. هنا فكر د. أيمن في ان يرسلني لمستشفى عين شمس التخصصي ليقوموا بزرع جهاز حديث لي. اتفق مع زوجتي على ذلك وتم ترتيب كل شيء.

يوم الأربعاء التف كل اصدقائي حولي وقالوا إنني يجب أن أذهب لمستشفى عين شمس...لقد تم ترتيب الأمور هناك، واخبرني د. أيمن أنه ألغى سفره إلى إسبانيا ليتأكد من أنني سأجري الجراحة في عين شمس بلا مشاكل. شعرت بالهلع.. كنت أحسب قصتي قد انتهت، وأتاهب للعودة للدار فاتضح أن هذه هي البداية!... وعرفت أن زوجتي تعرف هذا كله. كنت أشعر أنني لن أرى طنطا ولا أولادي ثانية.. وطلبت أن يجلبوا محمد ومريم لي لأراهما مرة ثانية وربما

أخيرة..

كانت جلسة قاسية سيئة ومريم بثياب المدرسة لا تفهم شيئًا وكذلك محمد. ثم جاءت سيارة الإسعاف تقف أمام قسم القلب فصعدت لها لأجرب لأول مرة شعور الضحية الراقدة.. شعور القتيل كما كنا نقول مازحين. في السيارة تركب معي منال ود. عمرو فايز مدرس أمراض القلب، والأمطار تنهمر.. جو مناسب جدًا للموت. وتنطلق السيارة في الشوارع والسرينة تدوي.. هذا أنا يا شباب.. هذه المرة أنا المريض..وسع الطريق.. معانا كاتب قصص رعب يموت..خليك يمين يا ملاكي.. من حين لآخر ينهض د. عمرو ليقيس ضغط دمي.. متأهبًا لعودة توقف القلب في أي لحظة..

وعند المساء وصلنا مستشفى عين شمس التخصصي...

العناية المركزة هناك تتمتع بالكفاءة والدقة، لكنها كئيبة جدًا.. تشعر أنك في قبو تحت الأرض، طبعًا شبكة المحمول لا تعمل على الإطلاق. هناك كان ابن أختي بانتظاري ودخلت منال في مشاكل مع طبيب العناية الذي يصر على ألا تبقى معي، وكان هذا رأيي على

كل حال، لكنها اتصلت بدكتور وجدي جلال أستاذ أمراض القلب الذي طلب من الطبيب أن يتركها تبقى...

ليلة طويلة هي فعلاً..

في الصباح نقلوني لغرفة الجراحة حيث كان د. وجدي جلال ومعه فريق بالغ الكفاءة.. أجروا عملية قسطرة (بسرعة البرق) عرفوا بعدها أنه لا مشكلة في شراييني التاجية. هذه مشكلة كهرباء وليست مشكلة سباكة كما يقولون. وهكذا بدأت أغيب عن العالم مع ما حقنوني به، بينما هم يفتحون فتحة في صدري ويغلقون فتحة فخذي. وعندما أفقت بعد ساعة كان كل شيء قد تم، وزرعوا الجهاز الذي يبلغ حجمه تقريبًا حجم ماوس الكمبيوتر.

الجهاز الذي زرعوه لي ليس منظم ضربات للقلب.. إنه أعقد من هذا... اسمه ICD ومهمته أن يراقب النبض فإذا شعر باضطراب أو ارتجاف بطيني أطلق الصدمة الكهربية التي تعيدني للحياة، ويعمل بحجارة تستبدل كل سبع سنوات. جهاز باهظ الثمن طبعًا لكن جامعة طنطا قامت بتحمل تكاليفه بالكامل.

وعدت للبيت بعد يومين بينما الأمطار تنهمر ...

أتابع الجهاز دوريًا في مستشفى عين شمس مع الأستاذة الدكتورة هيام، وهي بالغة الاهتمام بفسيولوجيا القلب. شعرت مرتين بالجهاز يصدر أزيزًا، ولا أعرف معنى هذا.. ربما معناه أنني نجوت مرتين أخريين..

كانت المشكلة في المرحلة التالية هي الدوار.. فعلاً لا استطيع أن أبقي رأسي مرفوعًا أبدًا.. المشكلة الثانية كانت الاكتئاب.. اكتئاب شديد مروع استمر عدة أشهر، وهو شبيه بالاكتئاب الذي يصيب كل من يخرج من نوبة قلبية.. ذلك الشعور الكئيب بأن اليوم طويل والإضاءة ضعيفة والتنفس صعب!.. يضيق صدرك تمامًا وتشعر بأطنان تجثم عليه.. فعلا شعور فظيع! لو لم يزل لكنت قد جننت فعلاً..

دعك من رقابة زوجتي الصارمة لي. طبعًا منعتُ التدخين ومنعتُ القهوة، لكنها كانت تريد منع الشاي كذلك.. تعتقد أن الأطباء نسوا منعه.. منع التدخين ساهم في تفاقم حالة الاكتئاب، وما زلت حتى اليوم أنظر بحسد لكل من يدخن بلا تأنيب ضمير أو لوم.

عندما راجعت الفحوص الطبية وجدت أنه كان من الخسارة ان أموت.. أنا مهمل في صحتي جدًا، وكنت أتوقع وضعا في غاية السوء، وأن أجد الكلية تالفة والشرايين التاجية مسدودة ولدي سكر لم يعالج.. الغريب أن كل شيء رائع.. وظائف الكلية ممتازة.. لا يوجد سكري.. دهون الدم سليمة تماما.. الشرايين التاجية كشرايين طفل.. طفل لم يدخن سيجارة أو يشرب قهوة أو يأكل قطعة دهن في حياته!

لقد عدت للحياة.. يجب أن أتذكر هذا.. ربما كانت لعودتي دلالة مهمة.. لا أعرف.. ربما كان هناك عمل مهم جدا سوف أنجزه.. لكن ما هو؟.. أخشى أن أكون قد عدت لأتلف ما قمت به في حياتي الأولى.

الموت يأتي بسرعة فائقة فلا تراه قادمًا.. ومن ماتوا لم يجدوا فرصة ليخبروا الآخرين بهذا. أنا من القلائل الذين عادوا ويمكنهم أن يؤكدوا لك ذلك!

مرحبًا بكم في سيرك (أبو شفة)

منذ أيام أخذت ابنتي لسيرك إيطالي شهير يعرض ألعابه في طنطا، وسبب عدم اصطحاب ابني وزوجتي هو أنهما يمقتان السيرك بشدة. كان العرض مصممًا بعناية وبالغ الإبهار، وقد راق لابنتي كثيرًا، لكني لم أستطع نسيان ذكرى حريفة قديمة تعود لطفولتي. هل كان سيرك (أبو شفة) بالفعل أجمل مذاقًا؟.. ربما.. وربما لأنه كان أول سيرك أراه في حياتي..

أعود بذاكرتي إلى العام 1972.. أي أننا نتحدث عن أربعين عامًا.. لا تندهش.. أنا لست متوشالح شيخ التوراه.. أنا مجرد رجل على باب الخمسين، وسوف يأتي عليك يوم مماثل تكتشف فيه أن أربعين عامًا مضت منذ قامت ثورة مصر 2011..

بما أنني من طنطا، فمولد السيد البدوي يلعب دورًا مهمًا في ذكرياتي.. أسبوع يتصاعد في إثارته وحماسته حتى نصل إلى الليلة الكبيرة. إن الفلاحين في القرى حول طنطا ينتظرون هذا اليوم في شغف، ويدخرون المال لإنفاقه في هذا الأسبوع. وقد لاحظ عالم الاجتماع الكبير علي فهمي أن معظم موالد مصر لا علاقة له بتاريخ ميلاد الأولياء، ولكن له علاقة بجني المحاصيل!.. أي أن المولد يتم تصميم تاريخه حسب الوقت الذي يكون فيه الفلاح قد باع محصولاً معينًا وجيبه مليء.. إنها لعبة اقتصادية لا دور للدين فيها كما ترى. وعلى هذه الأيام يعتمد دخل كبار تجار طنطا لمدة عام تقريبًا.

يذهب الفلاح للمولد ليـنعم بليلة الأحلام.. كأنه ذهب إلى ديزني لاند.. نيشان.. التهام ذلك الهلام الملون مجهول الهوية في أطباق.. مص القصب.. مشاهدة الرقص الشرقي.. أكل السمك المقلي الذي لا يعرف أنه قشر بطيخ مُعالج بعناية ليخدع الجميع.. ختان ابنه.. أكل الحمص وحب العزيز، ويحيط بهذا كله جو من الشعور بالبركة.. الخيام ذات اللون الأخضر إياه والإنشاد الشعبي من الشيخ (حامد حَفور)، وأشخاص لا يفعلون أي شيء ولا تعرف عنهم سوى

أنهم (من المحبين). هذا دين موازٍ له طقوسه وعباداته، فلا تندهش.. هناك في جنوب مصر مقام لأحد الأولياء يعتبرون الطواف حوله بمثابة حجة.. فلا داعي لأداء فريضة الحج بعد ذلك !!!!. إن كتاب د. علي فهمي عن تدين الحرافيش في مصر كتاب ممتع ومهم جدًا، وقد صدر عن دار ميريت إذا كنت مهتمًا بالاستزادة.

ثم تأتي لحظة الذروة الأخيرة يوم الجمعة.. عندما يمر موكب الخليفة، والنترزان وتلك الدقة المميزة للطبول، بينما تزغرد النساء. كنت أسكن قديمًا في بيت يطل على الشارع الرئيس الذي يمشي فيه الموكب، كان من ضمن طقوس طفولتي أن أقف في النافذة لألقي البونبون على هذا الموكب، وكنت أعلق أهمية دينية عظمى على هذا الطقس.. احتجت لوقت طويل حتى أتعلم أن هذا كلام فارغ وبعيد عن الدين، وكانت صدمة معرفية أولى..

بعد هذا اعتدت أنا وأبي أن نصلي الجمعة ثم نذهب لمراقبة هذا الموكب. ثم نعود للبيت سريعًا، ومن المصادفات الغريبة أن السماء كانت تمطر دومًا بعد مرور موكب الخليفة. لا دور للمعجزات هنا

طبعا ولكن أعتقد أن الأمر يتعلق بكمية الأتربة الرهيبة التي تصعد لعنان السماء.

كنا نمشي في ذلك اليوم قرب ميدان السيد البدوي الذي بدأ يفرغ من الزحام وبدأ أصحاب الخيام يجمعونها. تلك اللحظة المفعمة بالشجن التي يعرفها كل طنطاوي جيدًا.. المدينة تخلو والغبار يملأ الجو والمطر ينهمر، ثم تأتي ليلة مقفرة صامتة.. وغدًا العودة للمدارس!

هنا فوجئت بتلك الخيمة التي لم يفكوها بعد.

كانت هناك منصة يقف عليها رجل يلبس سترة لامعة شبيهة بجلد الثعبان، ويمسك بمكبر صوت.. وجواره رسم عملاق رديء وغليظ جدًا يظهر ساحرًا وفتاة بلا رأس وأسدًا يزأر..

وكان يهتف:

-"بقرش صاغ واحد.. يا سلام.. السيرك العالمي.. سيرك (أبو شفة)"

في ذلك الوقت كان مبلغ قرش صاغ فادحًا يحتاج لبعض التدقيق.. يدخل الجيب بصعوبة ويخرج منه بصعوبة. ثم ما موضوع (أبو شفة) هنا؟.. كلنا لدينا شفة، فلابد أن (أبو شفة) له شفة عملاقة جديرة بالتدريس في كتب التاريخ الطبيعي..

ـ"فتاة النار والكهربا.. تحط اللمبة على رجلها تنور.. على صدرها تنور"

ومن خلفه خرجت فتاة منكوشة الشعر قبيحة كالأبالسة، وهي تأتي بحركات إغراء تقلد بها فتيات الاستعراض.. ثم ظهر رجل متسخ الثياب يبدو كعسكري المرور.. له شارب رفيع ويقلد شارلي شابلن..

ـ"تعال شوف شارلي شابلن.. يا ابن العفريتة يا شارلي"

وكنت في ذلك الوقت قد كونت نظريتي الخاصة عن أن أي شخص يقلد شارلي شابلن يكون هو السماجة بعينها. وقد كان هذا صحيحًا.

ـ"تعال شوف الأسد والنمر.. وشوف الشجيع"

كنت أحفظ تحفة صلاح جاهين الرائعة (الليلة الكبيرة) التي امتدت لها لمسات سيد مكاوي والسقا لتجعل منها حجرًا كريمًا يتوهج في عنق الفن المصري، لهذا كنت أتوقع أن هناك أسدًا فعلاً... أنا شجيع السيما أبو شنب بريمة..وتعال لي يا حبيبي تعال لي..

-" كل حاجة بجنيه واحد.."

ترفع الفتاة إصبعها بحركة تحسبها رشيقة بما يعني (جنيه واحد)..

-"يا الله.. آخر عرض في مدينة طنطا الكريمة.. قبل ما يلعب.."

هذا هو العرض الأخير قبل مغادرة البلدة كما نرى في القصص التي تدور في الغرب الأمريكي. سوف يحضر المأمور للتأكد من أن الفرقة غادرت البلدة فعلاً، على حين تتحرك عربة الأسود وعربة الأفيال بتثاقل نحو المولد التالي أو البلدة التالية.. في ألاباما..

كان رد فعل أبي هو أن جذب يدي ليبتعد، لكنني تسمرت في الأرض وقد أدركت الحقيقة: سأموت لو لم أر هذا العرض.. ابعدوني

من هنا واحفروا لي قبرًا..

أبي المسكين يعبث في جيبه مضطرًا فيخرج قرشين.. ونحصل على تذكرتين، وندخل إلى عالم الأحلام بالنسبة لي.

كان أبي مدير شركة متأنقًا شديد الوقار، لا يتحرك إلا بالبدلة والصديري وربطة العنق، فكانت المفاجأة الأولى بالداخل أن جمهور السيرك من الطراز الذي يحضر بالبيجامة والجلوس على دكك خشبية مهشمة مليئة بالمسامير. المفاجأة الثانية بالداخل هي أن البراغيث كثيرة جدًا.. المفاجأة الثالثة أن معظم الموجودين من الصبية.. وغالبًا هم صبية في السابعة يدخنون السجائر ويتبادلون السباب.. أنت تعرف أن الصبية في هذه السن يبالغون في الوقاحة وقلة الأدب لأن هذا يجعلهم أقرب للكبار..

أبي المسكين وجد نفسه في السيرك فعلاً، بالمعنى الحرفي للكلمة، فدس رأسه في الجريدة وحاول أن تمر هذه اللحظات بسرعة.. نفس منطق من يقف على منصة المشنقة بانتظار هبوط الطبلية.. لحظات قاسية لكنها ستنتهي سريعًا يا سادة.

على المسرح برز الرجل الذي كان يدعونا للدخول بالخارج. إذن هو (أبو شفة) نفسه، وقد خاب أملي لأن شفته ليست متضخمة.. وأعلن بكل فخر:

-"الآن إليكم الساحر الليبي"

ومن مكان ما تعالت موسيقا من أكورديون تالف وطبلة من الطراز الذي يوضع بين ركبتي العازف، ونظرت بحثًا عن الساحر الليبي فاكتشفت أنه أبو شفة نفسه.. هذا الرجل رائع فعلاً. لقد غير لهجته إلى ما يعتقد أنها لهجة ليبية، واحتفظ بنفس الثياب وكل شيء، وبدأ يقدم فقرة عن ابتلاع خمس كرات لتخرج من فمه ستًا أو شيئًا من هذا القبيل.. الأسوأ أنه طلب صبيًا من الحضور ليساعده، وناوله بعض الكرات التي ابتلعها هو ليبتلعها!... حمدت الله على أنه لم يختصني بهذا الشرف.. شرف ابتلاع الكرات التي كانت في فمه..

ثم جاءت الفقرة المعروفة للسلاسل التي تدخل في بعضها، والماء الساخن الذي ينسكب على الناس.. الخ. لقد كان عرض الساحر

الليبي حافلاً، ثم سرعان ما عادت لهجة (أبو شفة) لطبيعتها وقدم الفقرة التالية: تحط اللعبة على صدرها تنور، وهي كما تعرفون شعار هذا النوع من المسارح..

نظرت لأبي فوجدته غارقًا في الجريدة وقد صار لونه بلون الطماطم.. لا يجسر على رفع رأسه لحظة..

الفقرة التالية كانت مطربة أفراح من اللواتي يضعن كلاكس سيارة اسعاف في حلقهن، لكن يبدو أنها أسعدت الجماهير فعلاً. يبدو أنها الديفا أو الـ Super trouper هنا.. ثم ظهر شارلي شابلن على المسرح ليؤدي فقرة معقدة لم أفهمها حول تدخين السجائر وابتلاعها ثم إخراجها ثانية.. أما ذروة العرض فكانت هي الأميرة الهندية مقطوعة الرأس التي وضعوا رأسها في مزهرية ويكلمها (أبو شفة)، وكنت قد قرأت عن طريقة هذه اللعبة، وأنه يجب أن تلقي ورقة مجعدة جوار المنضدة لتكتشف أن هناك مرآة تتوارى وراءها هذه الفتاة.. فكرت في ذلك لكن وجه الأخ (أبو شفة) لم يكن يشجعك على هذا الجهد الاستكشافي..

وفجأة أعلن الرجل عن انتهاء العرض....

لم يسأل أحد عن وعد الأسد والنمر الذي حنثوا بـه، وتـدافع الكل للخروج. رأيت مقدم الحفل يتخلى عـن لطفـه ليصيح في شـارلي شابلن وعيناه تطقان الشرر:

ـ"عارف يا شارلي لو شفت واحد هنـا مـن العـرض اللـي فـات حشوف شغلي معاك!.. فيه وشوش بشوفها في كل عرض!"

ورأيت شارلي شابلن يحمل خيرزانه ينزل بها بـين الـصفوف وهو يصيح بوجه شرس:

ـ"يا الله ياد.. يا الله ياد يا بن الـ....."

منظر جدير بالرؤية فعلا.. شارلي شابلن بكامل ثيابـه المرحـة يتكلم ويطلق السباب.

وعلى الباب كـان هنـاك حـشد الوجـوه الطازجـة الـتي تنتظـر دورها لرؤيـة هـذه الأعجوبـة بالـداخل. بينمـا وقـف أبـو شـفة علـى منصة، لطيفًا ظريفًا كما كان:

-"بقرش صاغ واحد.. يا سلام.. السيرك العالمي.. سيرك (أبو شفة)"

وسأل ولد ببيجامة خاطت عليها أمه اسمه وعنوانه.. سأل أبي:

-"السيرك حلو يا كابتن؟"

فهز أبي رأسه في وقار أن نعم وابتعد بي مسرعًا..

برغم هذا فإنني سأظل أنكر هذا السيرك كثيرًا جدًا.. أعترف أنني لم أشعر بنفس السرور والنشوة وأنا أرى ذلك السيرك الإيطالي، كما إنني رأيت فيلمًا لـ (سيرك الشمس) العالمي الشهير فلم أشعر بذات الانبهار..

أما عن أبي فإنني أندهش من الحد الذي يمكن أن يذهب له الأهل لإرضاء أبنائهم. أعرف واحدة من قريباتي، وهي أستاذ جامعي. أخذت طفلتها إلى السوق وهناك وجدت الطفلة أرجوحة من تلك المراجيح الصدئة التي يجرها بغل أجرب، فأصرت على ركوبها. قامت الأستاذة الجامعية بوضع طفلتها في الأرجوحة للفة أو اثنتين..

فلما انتهت وجدت أن الرجل يطالبها بأجر اثنين:

- مش انتي اتمرجحتي معاها يا أبله؟"

كان أبي من ذلك الجيل من الآباء الذين يجمعون بين الحزم الشديد والاستعداد لعمل أي شيء حلال وقانوني يسعد أطفالهم.. أبوس ايدك أن تقرأ له الفاتحة معي الآن!

خداع النفس فن

هناك نوع فظيع من خداع النفس اسمه «الشيطان جعلني أفعل كذا».. هكذا تقول الزوجة الخاطئة واللص والقاتل عندما يواجهون بعيون زائغة عدسات الصحافة. يذكر صلاح عيسى في التحقيقات مع سفاحتي الإسكندرية «ريا وسكينة» أن المرأتين كانتا تؤمنان أن كله «قدر ومكتوب»!.. أي أنهما كانتا تصحبان الضحية لبيتهما، وتسكرانها وتخدرانها، ثم تخنقانها بمنديل مبتل بالماء، ثم تقومان بدفنها تحت أرضية الغرفة.. كل هذا قدر ومكتوب ولا دخل لهما فيه!

على إن خداع النفس الذي أتحدث عنه هنا ليس بهذه

الدرجة، ولا يصل لدرجة ذبح النساء ودفنهن..

إنه خداع كل لحظة في حياتنا..

يخدع المرء الكثيرين في حياته.. ولعل هذا من ضروريات الحياة المهمة التي تبقينا أحياء، وكما يقول مارك توين: لولا البلهاء لما حقق الآخرون أي نجاح..

نناور ونخفي أفكارنا، ونكذب ونتزلف.. وفي النهاية نحقق ربحاً أكيدًا. لكن أرقى أنواع الخداع طرًا وأقواها تأثيرًا هي الخداع الذي نمارسه على أنفسنا..

أنهت تلك الطفلة قريبتي امتحانات النقل، فقالت في فخر إنها غشت كل الأسئلة وإن المعلمة (المس الآن) مرت على الطالبات وأملتهن بعض الحلول كجزء من سياسة إفساد التعليم السائدة.. المدارس تفهم الآباء وتفهم أن إرضاءهم أهم بكثير من قياس قدرات التلميذ الحقيقية.. ليس هذا موضوعنا على كل حال. المهم أن قريبتي الصغيرة ظلت تلعب لمدة أسبوع ثم ظهرت النتيجة.. هنا وجدت أنها حصلت على درجة أقل من زميلاتها. هكذا استشاطت غضبًا:

ـ"درجة كاملة؟.. كيف؟.. ولماذا؟ بالتأكيد هناك خطأ"

فلما ذكرتها في أدب أنها غشت الامتحان بالكامل حسب كلامها، قالت لي محنقة إن إجاباتها كانت صحيحة تمامًا، ثم لو افترضنا أنني غششت فلماذا حصلت على درجة أقل من زميلاتي ونحن جميعًا غششنا من مصدر واحد وكتبنا نفس الكلام؟. قلت لها إن درجة واحدة شيء تافه.. لكنها لم تكن لتتهاون مع درجة أو عشرين درجة.

مرضت وتعكر مزاجها وارتفعت درجة حرارتها، حتى أن أمها هرعت إلى الإدارة التعليمية تطلب فحص درجات ابنتها.. ودخلت في مشوار أوديسيوس الشهير بين المكاتب ودفعت مبلغًا لا بأس به من المال.

في النهاية.. لم تحصل الطفلة على أي درجة..

هذا أمر محير. الطفلة منذ البداية تعرف أنها نالت درجاتها بالغش.. وتعرف ما كتبته فعلاً. هل من المهين أن يقوم المرء بالغش أقل من اصدقائه؟

أعتقد أن هذا يندرج تحت بند الذاكرة الزائفة.. أنت تقنع نفسك بأنك لم تغش.. وبعد فترة يكون هذا ما فعلته فعلاً. أنت تغير الماضي على طريقة الخواجة أورويل في 1984 حينما يصير فلان Unperson أي أنه لم يوجد قط، أو حينما تقنع الناس أنهم كانوا في حرب دائمة مع إيوراسيا منذ البداية. هكذا صارت قريبتي تؤمن انها تعبت في إجابة الامتحان فلم تحصل على حقها.

كنت أعتبر هذه القصة ضمن غرابة أطوار الأطفال المعروفة، لكني بعد ذلك صرت مدرسًا بكلية وعملت في الكونترول. بعد أن تعلق النتيجة وينتهي كل شيء، تكتشف أن الفيلم لم ينته بعد، وان هناك ما يدعى (تظلمات). يستدعيك رئيس الكونترول لأن هناك بعض أوراق الإجابة يجب التحقق منها.. في عهدي كان معنى هذا أن تعود لأكوام من أوراق الإجابة الملفوفة بالحبال المكسوة بالغبار، تلك التي أفرغت الفئران أحشاءها ومثاناتها عليها.. دعك من الفئران التي تجري على قدمك. لا يهم.. هذا عملي وهو عمل نبيل.. ما أجمل أن تعيد لطالب مظلوم حقه. لقد اكتشفت ذات مرة خطأ في جمع الدرجات جعل طالبًا يرسب بينما هو يستحق تقدير (امتياز)، وقمت

بالتصحيح.. وشعرت يومها بأنني رائع وأن حياتي لم تذهب سدى! جميل أن تجرب هذا الشعور ثانية حتى مع بول الفئران..

الطالبة تؤكد في خطابها إنها رسبت في المادة بينما هي تعرف يقينًا أن إجابتها كاملة. تصل لكراس إجابتها وتفتحها.. لا شيء.. بيضاء من غير سوء.. فقط اكتفت بأن تكتب السؤال بلا إجابة أعلى كل صفحة. عندما تعيد هذا كله لمكانه وتغسل وجهك وتجلس لتشرب الشاي، تفكر في معنى ما رأيت.. الفتاة تعرف يقينًا أنها لم تكتب شيئًا فلماذا قدمت هذه الشكوى؟

التفسير الأول أنها مخبولة وأنها خلقت لنفسها ذاكرة زائفة، فتخيلت أنها أجابت عن الامتحان إجابة نموذجية.

التفسير الثاني هو أنها تسجل موقفًا أمام أهلها.. لقد قدمتْ شكوى وسوف ترى.. ثم عندما نعلن نحن إن شكواها بلا أساس تقول باكية:

-"هما حيغلطوا نفسهم؟.. لازم يطلعوا نفسهم صح!"

ثم ترفع يدها إلى السماء مرددة:

ـ"حسبي الله ونعم الوكيل فيهم.. ربنا ينتقم منهم"

وبالطبع بعد قليل سوف تكوّن ذاكرة زائفة، وتؤمن أن إجابتها كانت ممتازة لكننا أوغاد.. الأهم أنني جربت هذا الموقف مرارًا.. إنه ليس نادرًا على الإطلاق..

هناك مثلاً ذلك الرجل النهم الذي نصحه الطبيب بأن ينقص من وزنه ويأكل المسلوق.. هذا الرجل صديقي وأعترف أنه شره فعلاً..

دعاني إلى الغداء في بيته في ذلك اليوم، وبدأت المأدبة.. شعرت باحترام بالغ له عندما وضعوا أمامه طبقًا من الكوسة المسلوقة، بينما وضعوا أمامي أطباقًا دسمة مغرية بحق.. هذا رجل قوي الإرادة فعلاً. أنا لا استطيع أن أملك هذه الشجاعة.

قال لي بلهجة رثاء للنفس وهو يرشف الحساء الكئيب:

– «معذرة.. هذه أوامر الطبيب»

قلت له متصعبًا:

– «أعطاك الله الصحة»

انتهى من شرب حساء الكوسة.. وظل يرمق الطبق في حسرة. هنا فوجئت بصاحبة الدار ترفع الطبق الفارغ، وتضع أمامه طبقًا شديد الدسامة، ثم زوجًا من الحمام، وماسورة مسلوقة تسبح في بحر من الدسم والبهريز.. وبدأ يأكل في نهم شديد..

فهمت من زوجته بعد ذلك أن الرجل افترض أن أكل المسلوق معناه أن يأكل المسلوق بالإضافة لما كان يأكله في الماضي!

أي أنه يأكل المسلوق كنوع من العلاج يؤخذ قبل الأكل!.. أو كأن التهام المسلوق طقس سحري يجب أن يمارس من أجل الشفاء ولا علاقة له بالأكل.. النتيجة هي أن وجباته تضاعفت تقريبًا وازداد وزنه، وكان رأيه بالطبع هو أن الطبيب أحمق لا يفقه شيئًا..

دهشت جدًا لهذا النوع من خداع النفس. خاصة أن الرجل يعيش في حالة مستمرة من الرثاء للذات، حتى لتوشك عيناي على أن تدمعا من أجله.

لدي صديق آخر أقلع عن التدخين.. وقد وجدته يجلس في مقهى يدخن الشيشة. وقال لي إنه يلجأ لهذا الحل كبديل «صحي» عن

السيجارة!.. يقول أطباء الصدر إن الحجر الواحد يصل لثلاث عشرة سيجارة، وربما خمس وعشرين سيجارة.: صاحبنا يعرف ذلك جيدًا لسبب لا تتخيله.. لأنه طبيب صدر!.. لكنه مقتنع بهذا النوع من خداع الذات..

لكن الذاكرة الزائفة تلعب دورًا مهمًا هنا كذلك.. لو سألت هذا الرجل لقال لك إنه لا يدخن الشيشة بتاتًا، ولو بحثت في عقله لوجدت أنه بالفعل لا يعرف عن نفسه سوى هذا..

الأطباء النفسيون يعرفون طيف الأمراض المعروفة باسم Stomatization syndromes لا أعرف كيف أترجمها، وأقترح أن تترجم بـ (متلازمات الجسمنة).. هذا اسم معقد رهيب آخر سوف يروق للجميع. هذا الطيف يبدأ بالتمارض.. (الاستعباط) الصريح.. المريض يصطنع أعراض المرض اصطناعًا ويعرف ذلك.. ثم نمر بمتلازمة منخاوزن حيث يعتقد المريض أنه مصاب بمرض خطير ويدمن المستشفيات.. بعد هذا تأتي الهستيريا حيث المريض يصطنع أعراض المرض اصطناعًا لكنه لا يعرف ذلك.. أي إن خداع النفس صار

طبيعـة يمارسـها دون أن يعـرف أنـه يمارسـها.. أعتقد أن الـذاكرة الزائفة جزء أصيل من الهستيريا..

يحكي محمد حسنين هيكل في كتاب (بين الصحافة والسياسة) أنه قابل مـصطفى أمـين في الـسجن، فـراح مـصطفى أمـين يقـول لـه في حماسة: هل تذكر عندما فعلنا كذا وعندما قلـت لـك كـذا؟.. الخ.. ولم يكـن لهـذه الـذكريات أي وجـود. ثـم فطـن هيكـل إلى أنهـا الـذاكرة الزائفة.. لقد ابتكر خيال مصطفى أمين هذه الذكريات ثـم صـدق أنهـا حدثت فعلاً، بحيث لم يعد يعرف ماضيًا آخر.

حكى لي صديقي أنـه جلـس مـع خـصم لـه حـاول أن يهينـه، فانطلق صديقي يلعنه ويلعن أهله :

ـ"قلت له : انت إنسان منحط. امثالك يجب أن يمزقوا ويلقوا للكلاب.. لو رأيت وجهه وقتها!... لم يستطع أن ينطق حرفًا... قلت له: لا تكن خصمًا لي فانا أعرف كيف أعذبك وأهينك"

أطري شجاعته وزلاقـة لـسانه، ثـم أبحـث خلـسة عـن بعـض شهود الواقعة فيقولون لي إن صاحبنا كان هو الطرف الصامت العـاجز

المثير للشفقة.. لقد راح خصمه يهينه ثم بدأ يمزقه ويسلخه وهو عاجز عن الرد. ما حدث بعد هذا هو ما يطلق عليه الفرنسيون (شجاعة السلالم).. بعد انتهاء الموقف راح خياله يصور له ما كان يجب أن يقوله ويفعله. بعد هذا بدأت ظاهرة الذاكرة الزائفة تعمل وصار هذا هو ما حدث فعلاً..

كثير من الناس يجبنون في المشاجرات أو لا يجدون ردًا مناسبًا، ولكنهم بعد المشاجرة يؤكدون لك:

–"لم أرد أن أرد حتى لا أرتكب خطأً.. لقد تركت له الحبل على الغارب ليخطئ كما يريد!»

وهكذا يحول جبنه وبطء تفكيره بطولة ونبلاً... لست بارعًا في المشاجرات بتاتًا، وأجد أفضل الردود بعد انتهاء الموقف، لكني أحتفظ بالذكرى القاسية كاملة فلا أقنع نفسي أنني انتصرت...

كلما قلبت عينيك في المجتمع وجدت خادعي النفس...

عندي مجموعة كبيرة من السراويل.. بعضها يعود لأيام كنت نحيلاً رشيقًا، وبعضها يعود لأيام صرت بدينًا. أمس ارتديت بنطالاً

من أيام الرشاقة فأوشكت على الموت اختناقًا، وشعرت أن حجابي الحاجز صار فوق أذني.. كنت أتنفس بصعوبة وصرت عاجزًا عن الجلوس أو السعال أو التنفس. اليوم ارتديت بنطالاً من أيام البدانة، فشعرت بأنني مستريح وأن البنطال يحتاج إلى حزام يثبته لخصري حتى لا يسقط. قلت لنفسي إنني بدأت أفقد وزنًا وصرت رشيقًا لأنني لم أتناول العشاء أمس...

نعم.. صرت رشيقًا في ليلة واحدة، لكن هذا لا يمنعني من السخرية ممن يخدعون أنفسهم بلا توقف!

وماذا عن القراءة؟

إن عدد من لا يقرأون لأنهم مقتنعون أنهم مشغولون، أو لأن عيونهم مريضة لا يمكن أن تمسك به. معظم الناس لديهم كتاب مهم لا يجدون الوقت كي يجلسوا ليكتبوه...

أما عن الحب فحدث بلا حرج.. عندما يخطب الرجل الفتاة يكتشف فجأة أنه يحبها بجنون.. من مكان ما تخرج القصائد الشعرية الرديئة والدباديب والأغاني العاطفية، ويتفقان معًا يشاهدان

الغـروب.. أضـحك دائمًـا كلمـا رأيـت هـذا المنظـر لأنــه في 80٪ مـن الحالات لا يبالي أحدهما بالغروب ويجـده مملاً.. هـو يفـضل نـشاطًا بيولوجيًا أكثر حيوية، وهي تفضل أن يتجولا ليريا المحـلات ويـدفع دم قلبه.. لكنهما مرغمان على ذلك.. لابد من تقمص حالة الحب كمـا تظهر في التلفزيون والسينما.. كلاهمـا يقنـع نفـسه أنـه يحـب الآخـر بعنف...

بالطبع هذا هو الفصل الأول من القصة، قبل أن تتطـور الأمـور بعد الزواج.. هكذا قد تقف ملوثة بالدم والسكين في يدها أمام عدسـات الصحافة، وتكرر بلا توقف إن كله قدر ومكتوب والـشيطان هـو الـذي أرغمها على هذا!، أو تنجب فتذهب للإدارة التعليمية لفحـص أوراق ابنتها التي نقصت درجة عـن زميلاتهـا بـرغم أنهـا غـشت الامتحـان بالكامل!

قرب الجبل امرأة مرحة

منذ طفولتي والمعلمون يقولون إن عندي استعدادًا طبيعيًا لتعلم اللغات. هذا كلام جميل بالتأكيد، ولعلي ورثت هذا من أبي الذي كان يجيد أربع لغات، بل إنه قطع شوطًا كبيرًا في تعلم لغة الاسبرانتو التي كان العزم معقودًا على أن يتكلمها العالم كله، أيام عصبة الأمم والحلم بعالم واحد بلا حروب..

لكن تعلم اللغات ما زال يمثل لي عقبة شديدة التعقيد، ولا عجب إذا اعترفنا بأن المرء لا يجيد اللغة العربية نفسها حتى اليوم، ومن يزعم غير هذا مغرور حتمًا ..

لا أعتقد أن هناك كلمة بأي لغة أجنبية مرت بي ولم أحاول

حفظها. كانت هناك تلك الموسوعة التي تذكر عينات من اللغة اليابانية، وكنت في الثامنة من عمري عندما قرأت أن (يا ما تشيكا أوزوم) معناها (قرب الجبل امرأة مرحة). لم يخطر لي أنني في الواقع قرأت سطرين متتاليين معًا، وبالتالي حسبت أن من المواقف الشهيرة في اللغة اليابانية أن يقابل أحدهم صاحبه صباحًا، فينحني ويخبره بأن: "قرب الجبل امرأة مرحة". ولعل هذا خبر يتكرر في نشرات الأخبار؛ إذ تظهر المذيعة ضيقة العينين لتعلن للجماهير أن هناك قرب الجبل امرأة مرحة. كانت هناك كذلك كلمات مثل (رياح الآلهة) و(طريقة المحارب): بوشيدو وكاميكازي بالترتيب. هكذا حفظت هذه العبارات واعتبرتها قمة البلاغة. فقط أرسلوني إلى اليابان وسوف أهبط في المطار لأسأل أول من أقابله:

-"هل البوشيدو تهب من هنا؟"

فينحني في إجلال ويقول:

-"بل هذه الكاميكازي يا أحمد سان"

فأخبره أنه توجد قرب الجبل امرأة مرحة، من ثم يوقف لي

سيارة أجرة ونذهب معًا قرب الجبل لنراها. من يريد عبارات يابانية أخرى بعد هذا الحوار العميق؟

بالنسبة للإيطالية، كان هناك لغز من ألغاز المغامرين الخمسة يقوم فيه تختخ ورفاقه بزيارة إيطاليا، وأعتقد أنها تزامنت مع رحلة المؤلف الرائع محمود سالم الأولى لخارج مصر مما جعله يصمم على إقحام رحلته في القصة.. تناثرت عبارات إيطالية في القصة قمت بجمعها وحفظها جميعًا، وقد تواكب هذا مع برنامج ساحر في إذاعة الشرق الأوسط اسمه (خمس كلمات.. خمس لغات.. خمس دقائق).. في هذا البرنامج كنت تعرف خمس كلمات يوميًا وكيف تُنطق في خمس لغات مختلفة، وقد ظللت أتابع هذا البرنامج حتى توفاه الله..

الآن جاء دور اللغة الإنجليزية.. أزعم أنني أقرأ الإنجليزية منذ عام 1973، وأترجمها منذ عشرين عامًا، ومعظم قراءاتي بالإنجليزية.. لقد صارت طبيعة ثانية لدي، وبرغم هذا ما زلت لم أسيطر عليها بعد، ومن حين لآخر أتلقى لكمة قوية في أسناني بسببها.. عندما تقرأ إنجليزية قديمة رصينة مثل إنجليزية شكسبير

أو حتى ديكنز، فأنت تقابل الكثير من تعبيراتهم (الفصحى) التي تعجز عن فهمها تمامًا، ثم تقرر أن تريح نفسك وتقرأ الإنجليزية الحديثة فتقابل مصطلحات وتعبيرات مستحدثة تثير الجنون.. إنها لغة لا تكف عن النمو والانقسام كمزارع البكتريا التي يزداد عددها وأنت ترمقها تحت المجهر.. مثلاً في السبعينات مع فيلم (حمى مساء السبت) دخل فعل To travolt إلى اللغة الإنجليزية، بمعنى (الفتى الذي يذهب للديسكو ليلة السبت ليستعرض براعته في الرقص)، وأنت تعرف كيف صارت لفظة Google فعلاً لم يكن أحد يستخدمه منذ عشر سنوات..

هناك كلمات لعينة لا يمكن تذكر معناها أبدًا.. مثل Antediluvian و Aficionado و mawkish و rodomontade.. لو قرأت معناها ألف مرة في اليوم، فلابد أن أفتح القاموس في المرة الأولى بعد الألف.. (أرجو ألا تعلق قائلاً: أنا مذهول لأنك لا تحفظ معنى هذه الكلمات السهلة، لأن أعصابي لم تعد تتحمل!) الخلاصة أنني بعد كل تلك الأعوام من الصراع مع اللغة الإنجليزية ايقنت أنني لن أملك زمامها أبدًا، حتى لو كنت أقرأ كتابًا

كاملاً فلا أستعمل القاموس إلا مرتين.. هذا لا يعود لبراعتي لكن يعود لتسامح الكاتب أو قلة ثروته اللغوية!

الآن جاء دور الفرنسية.. هنا تبرز كارثة الأفعال. كل العالم يستعمل الفعل (يأكل) في ثلاث صور (أكل.. يأكل.. سوف يأكل).. بينما الفرنسيون على الأرجح عندهم تصريف لـ (كان يأكل) و(كان يأكل ثم توقف ثم عاد يأكل) و(ربما يأكل في المستقبل القريب) و(كان ينوي الأكل ثم غير رأيه).. الخ.. الفرنسية مصابة بلعنة تصاريف الأفعال حيث لكل فعل 8587778 تصريفاً في كل الأزمنة الممكنة. برغم هذا يمكنني أن أقرأ كتاباً بالفرنسية لكن يا لها من قراءة!..

يأتي دور الألمانية، وقد لخص لي صديق يجيد الألمانية المشكلة معها في جملة واحدة:

-"في الإنجليزية تستعمل أداة a و an و the وتنام قرير العين.. بينما في الألمانية تغرق في بحر من الـ Der والـ Dem والـ Ein وauf و an .. وأداة الجر تأتي بعد خمسين كلمة"

نفس ما قاله الساخر الأمريكي العظيم مارك توين: "للألمان

طرق غير آدمية لتقطيع الأفعال.. إن الفعل يعاني ما يكفي في هذا العالم وهو كامل، فمن الوحشية أن تقطعه كما يفعل الألمان.. إنهم يأخذون جزءًا من الفعل ويغرسونه هنا كالخازوق، ثم يأخذون جزءًا آخر ويضعونه هنالك كخازوق آخر.. وبين الخازوقين يكومون الكلام الألماني"

الكارثة الأخرى التي لاحظتها هي أن كل مصطلح ألماني يطرد مصطلحًا فرنسيًا ببراعة تامة.. يعني لو عرفت ثلاث كلمات ألمانية جديدة فقد نسيت للأبد ثلاث كلمات فرنسية. نظرية المخ ذي الحجم الثابت كصندوق الحذاء لم تكن واضحة في ذهني، ثم بدأت أفطن إلى أنها صحيحة على الأقل معي. ووجدت نفسي ذات يوم أقول لفتاة فرنسية متأسفًا:

Ich bin desole!!

أي أنني بدأت الكلام بالألمانية ثم انتقلت للفرنسية.. مشكلة أخرى واجهتني مع الألمان والفرنسيين هي أنني أبدأ الكلام معهم بطلاقة مذهلة، فيسرون لمدى ثقافتي ويبدءون الكلام بطلاقة وسرعة، وهكذا ينتهي بي الأمر إلى أن أتوسل لهم أن يشرحوا ما يريدون

بالإشـــارات أو بالإنجليزيـــة، لكـــن مـــن دون اســـتعمال لفظـــة rodomontade لو سمحوا بذلك..!

اللغة الوحيدة التي لم تغرني يومًا بتعلمها هي العبرية، ولعل السبب هو الكراهية الدفينة داخلي تجاه إسرائيل – وهذا ليس مبررًا لعدم تعلم لغة عدوك – وكذلك أنها اللغة الوحيدة في العالم التي أشعر أن المتكلم بها يعاني ويتعذب ويتأذى.. إنه يتحشرج ويتقلص وجهه وسط الـ (ليلاتوف حاييم بشلوم هلوعوت).. هذه لغة منقرضة تنتمي لفئة الطوب والحفريات أصروا على إحيائها لأغراض استعمارية..

من جديد أتساءل: هل من يقولون إنهم يجيدون سبع لغات يجيدونها فعلاً؟.. وما هو تعريف الإجادة؟.. ولو كان هذا صحيحًا فما تركيب عقولهم؟... أتمنى لو قابلت كل واحد منهم على حده لأسأله عن معنى لفظة mawkish..

نعم.. تعلم اللغات مهم جـدًا لكنـه تجربـة قاسـية، وسـأسمح لنفسي بالتحفظ تجاه رأي أساتذتي الذين اعتقدوا يومًا ما أنني خلقت لتعلم اللغات!

Mekarrenn Mefarrenn

يمكنك بسهولة أن تدرك أن زحف اللغات الغربية على اللغـة العربية هو زحـف مغـولي لا يـرحم، ويحـرق القـرى ويقتلـع الـزرع ويهلك الضرع. كم من مـرة قـرأت في ردود القـراء (نـايس.. ثـانكس) و(كول) و(لول). وقد قرأت قصائد عـصماء لـشاب مـن أقـاربي كتبهـا كلها بطريقـة الفرانكـو آراب علـى غـرار (7bibty 2alt li).. الخ. قال لي إن هذه الطريقة أكثر رشاقة وظرفًـا. يبـدو أن فكـرة د. لـويس عوض وطريقة أتاتورك في استبدال الحروف اللاتينية بالعربيـة تعـود للحياة بقوة.

على كل حال نحن انتقائيون جدًا في هذه الأمور. يـستمع المـرء

لأغان غربية أو موسيقا كلاسية، فيتهمونه بأنه خواجة ومتصنع ويذكرونه بأن (النبي عربي)، فإذا أبدى غضبه لأن فلانًا لم ينصب المفعول به أو يجزم فعلاً مضارعًا جاء بعد (لم)، قيل له : "ما تخليكش حنبلي كده".

كل هذا معروف وكُتبتْ عنه مقالات لا حصر لها، لكن ما ضايقني مؤخرًا هو زحف مغولي من نوع جديد: زحف العامية لتطيح بقلاع الفصحى. قد نقبل العامية المكتوبة في الحوار، وفي الشعر العامي، وفي كلمات معينة في السياق وغالبًا بين قوسين. كما يقول إبراهيم عيسى مثلاً: "بلاش دي.. تعال نتحدث عن كذا وكذا.. مشيها كذا". مجرد جرعات محسوبة تعطي حيوية وحميمية للكلام لا أكثر. أما أن تقرأ مقالاً كاملاً بالعامية، فهذا بالتأكيد يشعرك بعدم راحة.. ثمة شيء ما خطأ. أن تقرأ عنوانًا في جريدة يقول: "السفير الإسرائيلي شغال نفسنة والوزير مكبر دماغه"، فهذا فتح جديد. لا أذكر أنني قرأت أي مقال سياسي مكتوبًا بالعامية الأمريكية مثلاً، ولم أقرأ عنوان جريدة بريطانية يقول:

"Bullocks! The government ain't gonna

win the elections"

سوف نقبل هذا باعتبار قطار التقدم أو الزحف المغولي – حسب رأيك – لا يمكن إيقافه، وهناك محاولات كثيرة سابقة، منها مثلاً كتاب (مذكرات طالب بعثة) للويس عوض الذي أثار دهشتي عندما قرأته أول مرة فوجدته بالعامية، وهو كتاب عتيق يرجع للخمسينات على ما أذكر. اليوم يمكنك أن تقرأ مدونات طويلة جدًا بالعامية على شبكة الإنترنت، ومع الوقت لم يعد هذا يبدو غريبًا أو يستحق التعليق.

جاءت المفاجأة فعلاً عندما قرأت أن د. علي الدين هلال أمين لجنة الإعلام وعضو المكتب السياسي للحزب الوطني، يطالب بعدم إلزام الطلبة المسيحيين بدراسة وحفظ الآيات القرآنية المقررة في مناهج اللغة العربية، وهو أمر غريب فعلاً. أولاً هذا القرار يعني تلقائيًا عدم استخدام آيات من القرآن في منهج اللغة العربية للدينين معًا، لأن المسلمين لن يدرسوا منهج لغة عربية مغايرًا لزملائهم المسيحيين. يعني هذا القرار معناه باختصار استبعاد القرآن الكريم من دراسة اللغة العربية. ثانيًا: كلنا يعرف أن الغرض من تدريس آيات قرآنية

ليس الدعوة هنا، ولكن باعتبار القرآن الكريم هو أعلى مرجع ممكن للغة العربية، وقد تم تأسيس علمي النحو والبلاغة اعتمادًا عليه. إن الارتباط قوي جدًا بين القرآن واللغة العربية بحيث لا يمكن الكلام عنهما بشكل منفصل في الحقيقة. لا يمكن أن نتصور أن يدرس إنسان اللغة الإنجليزية من دون أن يدرس شكسبير، ولا أن يدرس الفرنسية من دون راسين وموليير. بالطبع لا يدرس الإنجيل أو التوراه بالإنجليزية لأنك تعرف جيدًا أن هذه ليست لغتهما الأصلية، وحتى النص العربي يعرف الجميع أنه مترجم. وكما يقول الزميل محمود الغنام زميلي في موقع بص وطل؛ فقد درس وحفظ مقاطع كاملة من التوراه عندما كان يدرس اللغة العبرية ولم يعترض، لأن هذا أمر طبيعي جدًا.. لا يمكن بالفعل تخيل دراسة اللغة العبرية من دون توراه. دعك من أن هذه القضية لم تثر من قبل، ولي أصدقاء مسيحيون كثيرون سمعت منهم الكثير مما يضايقهم، فلم أسمع اعتراضًا على هذه النقطة بالذات. إذن هي مناورة سياسية ستروق للغرب والأمريكان جدًا، لكنها في الوقت ذاته تشارك دون قصد في هدم اللغة العربية كما يحاول أي واحد آخر.

الآن ننتقل – بلا فخر – للويكيبديا المصرية، وهي موسوعة الإنترنت التي قررت أن تقدم فتحًا جديدًا بان تكون كلها بالعامية. يقول مبدع الموسوعة: " ويكيبيديا مصرى مكتوبه باللغه المصريه اللى بيتكلمها المصريين و مكتوبه زى ما بيكتبوها في جواباتهم لبعضيهم و في حياتهم اليوميه"

ثم يسدي النصائح بصدد طريقة الكتابة، باعتبار أن تدمير اللغة العربية له قواعد صارمة: "مافيش «ي»، فيه ى؛ لإن «ى» مكتوبه زى ما بيكتبوها المصريين، لكن لو عاوز تكتب «ي» مافيش مشكله لأن «ي» و «ى» حرف واحد.

"ته التأنيث بتتكتب حسب النطق يا إما (ة) او (ه)، يعنى تتكتب «انا رايح المكتبه» و تتكتب «انا رايح مكتبة الكليه». لو فيه كلمه من أصل عربى او أى لغه فيها حرف/نطق الث و بيتنطق [س]، يتساب زى ماهو. و لو بيتنطق [ت] يتكتب بـ الت.

"مافيش همزات قطع و لا همزات وصل كلهم «ا» (الا لو فى نص و اخر الكلمه)، لكن لو عاوز تكتب همزة قطع جوّا المقاله،

مافيش مشكله.

ثم يتذكر نصيحة مهمة: "فيه شوية صغيره من المقالات في ويكيبيديا مصرى منها نسخ بالأبجديه اللاتيني لإن كان فيه اقتراح من سنة 1948 لكتابه المصرى بحروف الابجديه اللاتينى، و رغم ان اغلبية المصريين مش بتفضل الأبجديه اللاتيني، لكن فيه مواد قليله جداً في ويكيبيديا مصرى بحروف الابجديه اللاتيني (الفرانكو) للي عاوز يكتب بيها.".

يمكن بسهولة استنتاج أن الخطوة التالية هي استعمال الحروف اللاتينية لكتابة العربية كما يحدث في (الشات)، ويبدو أن نبوءة نزار قباني عن يوم يرغموننا فيه على أن نقرأ القرآن بحروف عبرية ليست شطحة شعرية.

نعم.. أعتقد كما تعتقد أنت أن الأمر ليس مؤامرة منظمة، بقدر ما هو نوع من (الروشنة) الشبابية. لا أعتقد أننا نملك اليوم التفكير المنظم الذي يسمح بنسج المؤامرات، لكننا نتحرك بعشوائية وحماقة كمستعمرة نمل مذعورة، والنتيجة واحدة هي أننا فعلاً ندمر

لغتنا بلا توقف.. دعك من النزعة العنصرية – ولا أقول الشعوبية – الواضحة في هذه الويكيبديا إذ ترفض كل ما هو عربي غير مصري حتى (الياء المنقوطة) التي تميز كتابة الشوام.

الموقف لم يحدث من قبل في التاريخ، لأن الإنترنت لم تكن موجودة، ولم يكن بوسع كل شخص أن يقول ما يريد ليقرأه الجميع. ليس الخطر ببعيد أو وهمي، إذ يجب أن تتذكر أن اللغة اللاتينية ماتت مع الزمن لتحل محلها العامية التي صارت اللغة الإيطالية فيما بعد، وعلى من يرغب في استعادة اللاتينية أن يتخصص في ذلك. على الأقل نحن نعرف أن اللغة العربية باقية ما بقي القرآن، لكن هذا لا يلغي الاحتمال المخيف: أن تصير الفصحى لغة خاصة لا يتعامل بها إلا من يقرأ القرآن أو يدرس دراسات دينية، بينما المجتمع والصحف وكل شيء يتكلم بلغة النفسنة وكول آخر حاجة، ويكتب قصائد المتنبي وامرؤ القيس بحروف لاتينية، ومن يعترض هو رجل ضيق الأفق.



تاريخ للكبار فقط

إعجابي بدكتور يوسف زيدان لا يخفى على أحد. من العسير في هذا الزمن أن تجد من يدقق بهذا الشكل، ويلاحق كل معلومة في خبايا التاريخ، مبرهنًا في كل مرة على أنه خبير مخطوطات من الطراز الأول. إنه عملاق بكل تأكيد، ولا أعتقد أن كثيرين يرغبون في تفنيد هذه النقطة.

في عدد 22 سبتمبر من جريدة المصري اليوم يواصل سلسلته (أوهام المصريين) التي انتوى أن تكون سباعية من الحلقات، ويحمل المقال اسم (الناصر أحمد مظهر). مقال بديع كالعادة وينطق بموسوعية الرجل، ولكن المشكلة هي أنه يتناول تاريخ صلاح الدين الأيوبي كما

ظهر في الفيلم الشهير الذي قام ببطولته أحمد مظهر، وهي نقطة نختلف معها منذ البداية.. من يأخذ التاريخ من الأفلام السينمائية فتلك مشكلته، ويكفي أن الدقة التاريخية معدومة تمامًا في أفلام ضخمة مثل (قلب شجاع) و(طروادة) كما أن كل ما ورد في فيلم (الشيماء) تقريبًا من خيال المؤلف.

ينتهز د. يوسف زيدان فرصة المقال ليسوي حسابه مع نظام عبد الناصر أولاً باعتبار الفيلم يدور عن عبد الناصر بشكل مستتر (وهذا رأيه وحقه طبعًا)، وفي الوقت نفسه يزيل عن أذهان العامة بعض الخرافات العالقة بشخصية صلاح الدين الأيوبي، وهو يبدأ الكلام قائلاً بقسوة: " والتجارة في الأحلام، من أربح التجارات (وأكثرها خِسَّةً)" وهذه العبارة تلصق تهمة الخسة بحشد لا بأس به من فنانينا الذين تعاونوا على تقديم هذا الفيلم؛ ومنهم نجيب محفوظ و عبدالرحمن الشرقاوي ويوسف شاهين، ثم يقول:

1- صلاح الدين الأيوبي، كان قائداً خائناً للسلطان نور الدين الذى أرسله على رأس الجيش من دمشق إلى مصر لتأمين

حدودها ضد هجمات الصليبيين، فترك الأمر ومهّد لنفسه السلطة.

2- العجيب الدال على شخصية صلاح الدين، أنه كان في الوقت ذاته قائداً من قوّاد السلطان نور الدين (السُّنّي) ووزيراً للحاكم الفاطمي لمصر (الشيعي) مع أن الدولتين كانت بينهما خلافات لا تقلُّ عمقاً عما كان بين المسلمين أصحاب الأرض.

3- بعد مناورات كثيرة، ومداورات، اضطر صلاح الدين الأيوبى إلى اقتحام القدس. ولم يفلح فى انتزاعها من قبضة الصليبيين إلا صُلحاً.. ثم أعادها الأيوبيون ثانية إلى الصليبيين كهدية، سنة ٦٢٨ هجرية!

كل هذا غير جديد وقد قرأته كثيرًا، وأذكر أن جريدة الدستور الإصدار الأول خصصت عددًا خاصًا لهذا الموضوع، ومنه عرفت أن لفظة (استكرده) العامية معناها (عامله معاملة الأكراد للمصريين) أي (خدعه). وصلاح الدين كردي طبعًا. أذكر أنني أرسلت وقتها خطابًا شبيهًا بمقالي الحالي للدستور لكن أحدًا لم يرد عليه. إن تفنيد هذه النقاط موجود ومتاح لمن أراد، ود. يوسف نفسه أول من حارب فكرة الزعيم الملهم الخالي من أية عيوب، وقد كان صلاح الدين جزءًا من

سيناريو انهيار الدولة العباسية لكنه في النهاية الرجل الذي استعاد القدس.

لا توجد شخصيات بيضاء أو سوداء في التاريخ، بل هناك الرمادي بدرجاته، وفيلم صلاح الدين لم يقدم سوى البياض الساطع الشبيه بأثواب الحجاج، بينما مقال د. يوسف زيدان لم يقدم سوى السواد. لا مشكلة عندي كذلك، فالرجل باحث مدقق ولديه أسبابه بالتأكيد، ولكن لماذا يجب أن يقرأ غير المتخصصين هذا الكلام؟ وماذا يمكن أن يستخلصه رجل الشارع منه؟.. سألخصه لك:

كل انتصاراتك وهمية يا صاحبي.. تاريخك ملفق.. أنت من (صنف واطي) غير جدير بشيء، وفي تكوينك الجيني خلل أصيل لا شفاء منه.. كف عن أغنية (من للقدس بعدك يا صلاح الدين؟) لأنه لا أساس لها من الصحة، وحتى اسمي القدس وأرشليم لم يكونا موجودين في ذلك الوقت. لقد أخذنا منك الأهرام وأعاجيب الفراعنة فقد صنعها رجال الفضاء أو قوم عاد، وحرب أكتوبر هي هزيمة مروعة، وتأميم القناة خطأ فادح، واليوم نثبت لك أنه لا انتصارات

فيما تعتقد أنه تاريخك الإسلامي المجيد..

جلد ذات لا ينتهي.. قد يبدو لذيذًا شهيًا للمصابين بالماسوشية، لكنه يترك الباقين بلا أمل..

التاريخ علم يخضع – كأي علم – للجدل والتغيير والانقلابات، وأنا أؤمن أنه لابد من أن يتم طرح كل شيء في قاعات الدرس والمحاضرات، لكني أؤمن كذلك بأنه لا ينبغي طرح كل شيء على صفحات الجرائد. ما نفعله نحن بهذه الدقة الأكاديمية الرهيبة هو هدم آخر حجر نقف عليه.. نحرق بقايا الطوف الذي يعبر بنا عباب المحيط.

لقد قرأت في جريدة الدستور الإصدار الأول مقالاً طويلاً يثبت أن سعد زغلول كان مصابًا بداء القمار، وقرأت في مجلة الهلال في الثمانينات أن أحمد عرابي كان على درجة من الغباء والوهن العقلي مما أدى لفشل ثورته، وقرأت في الدستور الجديد عن شاعر الرسول حسان بن ثابت وكيف أصابه الرعب أثناء الحرب فتوارى، وراحت النساء يدافعن عنه!. السؤال هنا: ما جدوى معرفة هذه المعلومات؟

لسيد القمني أعداء كثيرون، لكني قرأت للرجل كثيرًا فوجدت أن ما يقوم به بسيط جدًا: يبحث في بطون كتب التراث عن قصص لا يعرفها الجميع، ويقدم كل شيء كما هو دون انتقاء ودون أن يبدل شيئًا.. يقدمه لرجل الشارع الذي سوف يقرأ المقال ويصدم بقصص لم يسمعها من قبل ولا يبتلعها (قصة خالد بن الوليد في حروب الردة، وميراث فاطمة ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل المثال) ويغضب أو يصدم أو يشك أو يتظاهر بأنه لم يقرأ شيئًا.. ربما تحمر عينه ويتهم القمني بأنه عدو الإسلام، وربما يتساءل في حيرة (لماذا لم يخبرونا بكل هذه التفاصيل في المدرسة؟). رجل الشارع لن يبحث أبدًا عن رأي مختلف أو يحاول تفنيد المكتوب. وهذه هي نقطة الاختلاف عن الأكاديمي الذي يعرف بالضبط ثقل — أو خفة — المعلومة التي يطالعها. مكان كلام القمني هو قاعات التدريس بالجامعة والرسائل الجامعية وأقسام الأديان المقارنة.. الخ.. لكن ليس بين العامة.. وكذلك مقالات د. يوسف زيدان كهذا المقال مكانها قاعات التدريس بقسم التاريخ في كلية الآداب. أو على الأقل النشر في طبعات مخصصة للأكاديميين.

هل أقصد أنه لابد من وجود رقابة علـى التـاريخ الـذي يقـدم للناس؟.. أنت قد فهمتني فعلاً.

هناك مقولات أؤمن أن قيمتها لا تتجاوز اهتزازات طبلة الأذن لسماعها، ومنها أن الرقابة شريرة على طول الخط. الرقابة الرشيدة الواعية الأمينة قد تفيد المجتمع فعلاً. مهما كلمتني عن حرية العقل فأنا لن أتـرك كـتبي الطبيـة بمـا فيهـا مـن صـور ومعلومـات صريحة ليطالعها ابني. سوف أختار له كتبًا تقـدم معلومـة صحيحة مهذبـة نوعًا ولن أكذب عليه أبدًا. قرأت كثيرًا عن الآبـاء المؤسـسين للولايـات المتحدة، وخيل لي أنهم ملائكة من فـرط حـرص المـؤرخين الأمريكـان على عدم إلصاق أية نقيصة بهم. فقط عنـدما تتوغـل في التـاريخ أكثـر تعرف خلافات إبراهام لنكولن مع زوجته السوقية، وفضائح بنيـامين فرانكلين وتوماس جيفرسون وأولادهما غير الشرعيين. فرانكلين رتب عملية اعتقال ابنه لأنه مخلص لبريطانيا، وواشنطن كان يتحاشى أمه لأنها كانت تهينه أمام الناس عمدًا .. هذه الأشياء تعرفهـا بـصعوبة بالغة مع تأكيد واضح على أن هذه القصص مختلقة علـى الأرجـح. إذن لماذا نصر نحن على هذه الدقة الأكاديمية العتيدة؟

د. يوسف.. لـو كـان لـي أن أبـدي رأيـا فـيمن هـو في مقامـك وعلمك، فلتسمح لي بأن أقول إنك اخترت المكـان غـير المناسـب لطـرح هذا الموضوع، واخترت المثال غير المناسب (فيلم سينمائي) والأهم أنـك اخترت الوقت غير المناسب بتاتًا، في هذه الأيام السوداء وثقة المـصري مهتـزة بنفـسه وعروبتـه، فـلا يقـف إلا علـى خـيط اسمـه (تاريخـه المجيد). فلو برهنت له بشكل ما على أن تاريخنا لـيس مجيـدًا لهـذا الحد، فأنت لا تساعده علـى أن يفيـق.. أنـت تمنحـه ضـربة الرحمـة coup de grace الـتي ستدفعه إلى الهاويـة الـسحيقة الـتي تنتظره في شغف..

كائنات مهددة بالانقراض

الحياة تزداد تعقيدًا بلا شك..في بعض النقاط صارت أسهل بكثير؛ فقد كان من المستحيل في السبعينات أن تتخيل – حتى لو كنت جول فيرن نفسه – أن تحمل هاتفك الخاص في جيبك وتطلب به أي شخص في بلدك أو حتى ألاسكا. كان الاتصال بالقاهرة أو الاسكندرية أو شبين الكوم يعني أن تذهب للسنترال في ساعة مبكرة من اليوم وتمضي أربع ساعات تنتظر في توتر، بينما الصوت الهادر الحكومي يدوي من آن لآخر عبر مكبر الصوت:

ـ"4543 مصر.. كابينة 8"

فترى أحد الجالسين يهرع كالملسوع نحو كابينة 8 ويغلقها

عليه ويبدأ في الصياح، بينما كل الجالسين يسمعون تفاصيل ما يقال.. عشر ثوان ثم تنقطع المكالمة فيخرج خائب الأمل ليجلس بانتظار محاولة ثانية.. باختصار كان الاتصال بالقاهرة يعني أن تأخذ يوم إجازة من العمل، وأن تمضي خمس أو ست ساعات في مكان واحد.

أنت تعرف القصص من هذا الطراز، وتعرف كذلك عبارة الشيوخ المعتادة: كانت الحياة أبسط وأمتع برغم كل شيء. كنا نعرف كيف نستمتع. على كل حال يسهل أن تلاحظ هذا مع الأطفال.. اليوم يملك الطفل تلفزيونًا يرى فيه عشرات القنوات، وفي بيته كمبيوتر ولديه جهاز بلاي ستيشن، لكنه بالتأكيد ليس سعيدًا بالقدر المفترض أو بالمقارنة بأطفال جيلي، الذين كانوا يقصون الطائرات من ورق الكراريس، ويتيه الواحد منهم فخرًا ببندقية تقذف قطعة من الفلين. لا أعتقد أن أولادي أحبوا أية لعبة غالية الثمن مثلما أحببت أنا الجمل المحشو بالقش الذي ابتاعه أبي لي من جوار السيد البدوي.

عندما كنت أذهب للمدرسة كنت أرى الهداهد في الحديقة المجاورة للبيت.. هل ما زالت هناك هداهد في العالم؟... هل

انقرضت؟... أشياء كثيرة انقرضت من العالم للأبد، ومنها قوس القزح الذي رأيته مرارًا في طفولتي، وأمطار أكتوبر.. دائمًا ما كانت الأمطار تنهمر مدرارًا في أول أسبوع لنا في المدرسة، فأين ذهبت أمطار اكتوبر؟.. ولماذا ظللت ألبس القميص قصير الكمين حتى شهر ديسمبر من العام الماضي؟

الآن ينتابني الذعر على كائنات أخرى مهددة بالانقراض. يجب أن تسجلها المنظمات الدولية باعتبارها Endangered species وتنشئ لها صندوقًا خاصًا عليه شعار آخر غير شعار الباندا إياه. خذ عندك مثلاً:

– بائع الدوم والحرنكش والنبق العجوز الطيب، الذي يدفع عربته أمام المدارس. يعرف بدقة تامة موعد الانصراف من كل مدرسة. يقف هنا حتى يبيع القليل ثم يهرع بعربته نحو مدرسة أخرى جاء وقت فتح بابها. فشلت في العثور على مراهق يعرف معنى (النبق) على فكرة.

– بائعة البيض العجوز التي تمر على بيتنا يوم الجمعة،

وتجلس على السلم وتتفاوض مع أمي التي تعد لها كوب الشاي، وتدور مباحثات معقدة طويلة جدًا تستمر ساعتين تقريبًا.. كل هذا من أجل عشرين بيضة.. بيض صغير الحجم كأنه بيض ثعابين يستحيل أن تراه اليوم. في المرة الأخيرة كانت منهكة جدًا مريضة جدًا، وطلبت من أمي أن تعد لها شايًا باللبن وتذوب فيه ملعقة من السمن البلدي لتغذيها!... إلى أن فهمنا كيف تتحمل شرب الشاي بالسمن كنا قد عرفنا أنها توفيت. لابد أن هناك أخريات حيات يجب الحفاظ عليهن...

- جيل الأمهات والخالات والجارات اللاتي يعرفن كل شيء.. يعرفن كيف يذوبن السمن لإعداد تلك المادة الملحية الشهية (المورته)، وتقدر الواحدة منهن على ذبح وتنظيف خمس دجاجات أو تنقية خمسة كيلوجرامات من الأرز، أو تنظيف كيلوجرامين من السمك، كل هذا في ساعتين لا أكثر. يطلب زوجها وجبة من الفشة واللسان ولحم الرأس فلا تجد مشكلة. تعرف جيدًا من أين تبتاع هذه الأشياء وكيف يتم طهيها.

الكحول الأحمر مشكلة حقيقية لأنني لا أعرف أي شخص يعرف أين يُباع، ومن دون كحول أحمر ينقرض ذلك الاختراع الجميل المدعو (سبرتاية) الذي يصنع أروع قهوة شممتها في حياتك.. طبعًا محاولة ملء السبرتاية بالبنزين هو الطريقة الأقصر لصنع قنبلة مولوتوف. لكنهن يعرفن أين توجد (السرجة).. هذا المكان الغامض الذي يبيعون فيه الطحينة والزيت الحار والكحول الأحمر. عندما يذهبن للسرجة يقمن كذلك بتحويج البن.. هؤلاء النسوة وقودهن في الحياة هو القهوة.. وبالطبع تقود القهوة لفن جميل آخر موشك على الانقراض هو قراءة الفنجان.

هؤلاء النسوة يعرفن بالضبط ما يجب عمله بقطعة اللحم الحمراء الغضة الباكية التي خرجت لتوها من بطن الأم، ولماذا يجب تسخين الماء وقت الولادة.. يعرفن ما يجب عمله للمشيمة ويعرفن كيف يحسبن موعد السبوع. فيما يتعلق بالموت هن خبيرات في حساب يوم الأربعين بدقة ومن دون استعمال تقويم، وكيف يمكن التخلص من الليفة والصابونة اللتين تم غسل الميت بهما بالرمي في مجرى ماء. إنهن حريصات على أن يشهقن عندما يوضع الثوم المقلي

مـع الكـسبرة علـى الملوخيـة، وبعـضهن يـصرخن مولـولات لأن هـذه الطريقة المثلى كي لا (ترقد) الملوخيـة. كانـت خـالتي تـصر علـى أن البسلة الناضجة هي (مومياء) وتعتبر هذه علامة على الجودة، بينما كنت أنا أرمق طبق البسلة في ذعر شاعرًا أن كلمـة موميـاء لا تـريحني كثيرًا. خالتي كذلك كانت تجلب لنـا في زيارتهـا أكياسًـا مـن الفـول السوداني واللـب.. وفي موعـد سنوي لا تتـأخر عنـه تقـرر أن تنظـف حقيبتها فتفرغها لتتناثر بقايا الفول السوداني المهشم على الجريدة.. وكنا – كأطفال – نتصارع حتى الموت لالتهام هذا الفـول. أتـذكر هـذا المشهد كلما رأيت محـاولات الـشركات النـصابة لتعبئـة بعـض الفـول المهشم في أكياس بجنيه.. أقسم أن فول خالتي كان ألـذ بمراحـل وكـان مجانيًا.

هؤلاء النساء يعرفن كيف يدمسن الفـول ومتـى تـضاف ملعقـة سكر في لحظة استراتيجية معينة تضمن له النضج، كما أنهـن يعـرفن كل شيء عن أبخرة قلي السمك التي تصيب بالجذام (نفس مـا اعتقـده صيادو النـرويج في القـرون الوسـطى). أمـا عـن عـالم الحـسد والعـين والأعمـال المدفونـة فحـدث بـلا حـرج.. لا يـستطيع الـساحر الـشهير

(كراولي) نفسه أن يزعم امتلاكه لربع خبرتهن. هذا الكنز سوف ينقرض أو انقرض فعلاً.. أليس هذا قاسيًا؟

- الآباء الغارقون بالعرق ذوو الكرش، الذين يعودون من العمل ظهرًا ومعهم بطيخة وجريدة.. يتوارى الصبية ذعرًا في غرفهم لأن هذا هو وقت تنفيذ الأم لتهديدها المخيف (حاقول لأبوك أما ييجي). لابد أن يشرف على ذبح البطيخة كأنه يؤدي طقوسًا كهنوتية ما، ويتأكد بنفسه من أن البائع لم يخدعه. يجلس ليلتهم الغداء في نهم وينهيه بكمية هائلة من البطيخ، ثم يدخل لينام وقت العصر. لو لم تكن عندهم ثلاجة يتأكد من أنه دفن السكين في نصف البطيخة وغطاها بمنشفة حتى لا تشمها الشمامة.. لا أحد يعرف كنه الشمامة بالضبط، لكنها كائن سام يحب البطيخ جدًا...

عندما يصحو عند المغرب لن يذهب لأي عمل لأن الراتب يكفيه، بل سيجلس – بالفانلة الداخلية وسروال البيجامة الكستور – في الشرفة نصف المظلمة على الأرض يشرب الشاي بالنعناع.. لديه مذياع صغير يفتحه ليسمع آخر أخبار الجبهة ثم يعلن نظريته

العميقة:

– "إسرائيل تنوي شيئًا ما... أنا متأكد من ذلك.."

فتدعو زوجته على إسرائيل.. وهكذا ينتهي الجزء السياسي من السهرة..

من مكانه هذا يدير شئون الأسرة ويصدر تعليماته. جبل من المسئولية والثقة والهيبة. بعد هذا قد يدخل لينام ثانية أو ينزل ليقابل أصدقاءه في المقهى، أو يذهب للعزاء.. هناك دائمًا شخص مات في مكان ما ولابد من العزاء فيه. هذا الأب يجيد كل شيء.. إصلاح الصنابير التالفة وتغيير فتيل المنصهر وإصلاح لعبة الولد الزنبركية وتغيير سلك المكواة..

أليس من الخسارة أن ينقرض هذا النوع أيضًا؟

الزمن يتطور.. قد نتحمل رحيل مكوجي الرجل وصانع الطرابيش، لكن هناك أنماطًا من البشر يؤلمني بشدة أن نفقدها، والأقسى من هذا أن تقابل شبابًا لم يلقوا هذه النماذج قط. انقراض هذه الكائنات الرائعة هو الأقسى والأخطر من انقراض الباندا أو ذئب

تسمانيا أو النسر الأمريكي الأصلع، لكنك لا تستطيع أن تنشئ محميات طبيعية لتجار الدوم وبائعات البيض والخالات المحنكات، أو أن تستنسخهم. يجب أن تقبل دورة الزمن التي تحتم أن ننقرض نحن كذلك.



لا تقرأ هذا المقال

في بداية عهدي بالقراءة، كنت أؤمن إيمانًا لا يتزعزع بأن أي حرف مكتوب هو شيء محترم جدير بالقراءة.. كل شيء يجب أن يُقرأ حتى النعي في الصحف، والكتابة على طوابع البريد، وحتى إجابات التلاميذ في أوراق الكراريس التي يُلف فيها الترمس.. أحيانًا ما تؤتي هذه العادة أكلها؛ كما حكى لي أحد أصدقائي الأطباء النابهين عندما لف له البائع البطاطا الساخنة في ورقة كتاب الأحياء للصف الثالث الثانوي.. وجد في هذه الورقة شرحًا مبسطًا بالعربية لعملية نسخ الحمض النووي وحركة الريبوزوم وتخليق البروتين.. الخ.. ولم يكن صاحبي من الطلبة المجتهدين أيام الكلية، لذا بدت له هذه المعلومات طازجة تمامًا وهدية من السماء، قرأها بعناية وهو

يلتهم البطاطا الساخنة متأوهًا من حرارة البطاطا ومن نشوة المعرفة، وبفضلها وضع قدميه على بداية الطريق الصحيح وراح يقرأ المراجع الكبرى والدوريات العالمية، حتى صار من أهم الملمين بعلوم الهندسة الجزيئية والوراثة،وصرنا جميعًا نسأله عن أي ألغاز تقابلنا..

لكن هذه ليست القاعدة.. القاعدة هي أنك تقابل الكثير جدًا من الكلام الفارغ.. وعلى المرء أن يتعلم متى يتغلب على تقديسه الخالد للكلمة المطبوعة ويتجاهل الهراء. هناك ناقد كُتُب أمريكي شهير سأله الناس عن سر سرعته في القراءة، فقال:

-"أنا أؤمن أن الكلام المهم يجب أن يقرأ بأناة السلحفاة، بينما يجب أن تثب عيناك وثبًا فوق الكلام الفارغ.. الهراء يجب أن يُقرأ بسرعة البرق. ومما يدهشني أن أرى الناس يطالعون الصحف حرفًا حرفًا مضيعين في ذلك عدة ساعات، لأنهم لم يتعلموا عادة الوثب فوق الفقرات"

الجزء التالي من المقال ليس فكرتي للأسف، ولكنه فكرة قرأتها منذ زمن سحيق في مجلة (المختار من الريدرز دايجست)

لكاتب أمريكي ما، ولم أنسها قط.. ليس هذا هو نص المقال الأصلي حرفيًا لأنه ضاع للأبد، لكنها ذات الفكرة من الذاكرة، وأنا أراها تدريبًا ممتازًا على التجاهل الذي نريد أن نتعلمه:

لا تقرأ هذا المقال..

الأمر سهل.. اقلب الصفحة وينتهي الأمر.. وفي عصر الكمبيوتر لا يقتضي الأمر سوى أن تضغط على زر Home أو زر back أو تطفئ الجهاز بالكامل وينتهي الأمر..

هلم.. أنا كاتب المقال وأؤكد لك أنك لن تجد علمًا ثمينًا أو منفعة عظيمة أو تتعلم شيئًا جديدًا.. لن تجد كلامًا يبكيك أو يجعل الشعر ينتصب على ظهر ساعدك من القشعريرة.. لن تجد ما يثير لديك ذكرى قديمة.. وبالتأكيد لن تجد ما يدفعك للتفكير..

هلم.. توقف الآن..

ماذا تحاول أن تعرفه فوق ما عرفت؟..

يقولون إن الفضول قتل القط، ومن الواضح أنك قط فضولي

كبير.. أنت تخشى أن تترك المقال فيكون فيه شيء مهم يعرفه الآخرون وتجهله أنت..

ربما دعابة قوية.. ربما سر عن أحد المسئولين..

دعني أؤكد لك أن المقال لن يتضمن هذا على الإطلاق..

هي مجرد كلمات.. كلمات.. كلمات تجدها في كل مكان وعلى الجدران وعلى أبواب دورات المياه وفي ملفات الحكومة.. بالتأكيد ليست مقتطفات من كتاب سماوي، ولم تقتطع من شعر المتنبي أو شكسبير.. لا تحوي في سطورها نظرية أينشتاين.. بل هي أقل أهمية من فاتورة البقال.. فاتورة البقال لها أثر مهم وخطر، وهي قادرة على جعلك تطلق السباب أو ترتجف أو تصرخ أو تبكي.. لكن كلماتي لا تقدر على ذلك..

لقد كتبت خمسمائة كلمة وأنت مصر على القراءة..

هذا غريب فعلاً.. أنت إنسان غريب..

كلماتي ليست فاتنة ولا تتمايل مثل مارلين مونرو أو حتى

شعبان عبد الرحيم.. إنها مفككة وسخيفة وخالية من الحرارة..

ما أسهل التوقف عن قراءة كلمات خالية من الحرارة..

هل قرأت هذا الجزء كذلك؟.. أنت إنسان مستحيل فعلاً..

فقط لمسة.. لمسة للصفحة أو زر الفأرة أو ضغطة على زر الكمبيوتر أو ضغطة على جفنيك... عندها سوف تنتصر.. تنتصر على الكلمات وعلى الضعف البشري..

لا أعرف ما كنت سأفعله لو كنت مكانك، لكنني من يختبر الآخر لذا أشعر أنني الأقوى والأقدر والأذكى.. أنت تعرف كيف كان أستاذك واسع العلم وهو يختبرك..

يبدو لي الأمر سهلاً.. هلم.. مرة واحدة..

لم تبق إلا بضعة أسطر والفرصة توشك على الضياع من يدك.. عندما ينتهي هذا المقال لن تكون هناك أعذار، وعليك أن تعرف أنك فشلت في اختبارك الأول في تحاشي قراءة الكلام الفارغ..

بعد هذا سوف تقرأ المشاكل العاطفية والنعي في الصحف

والإعلانات المبوبة والتهاني التي ينشرها المسئولون المنافقون من أجل مسئولين أكثر نفاقًا.. سوف تقرأ كل شيء حتى محاولات أخيك ذي السبعة أعوام الشعرية..

لهذا لا يصير كل إنسان ناشرًا.. فقط الناشر هو من يملك القدرة على عدم قراءة باقي المقال.. صحيح أنه يضيع الكثير من الكنوز لكنه يرحم نفسه من هراء أكثر.. وعندما يكتشف فيما بعد أنه أضاع من بين يديه يوسف إدريس أو تشيكوف أو إيزاك أزيموف، فإنه يقنع نفسه بأنه (بناقص كاتب)..

الفقرة الأخيرة والإنذار الأخير..

لقد انتهيت فعلاً... هأنذا أضعت وقتك في قراءة كلام فارغ لا معنى له، وانهلت عليك باللوم، واتهمتك بالفضول وضعف الإرادة... ثم هأنذا قد انتهيت فماذا استفدت أنت؟؟؟؟؟؟!!

مقال مثير للغرائز*

نعم.. أنت لم تخطئ قراءة العنوان، فقد قررت أن أبدأ ثورة جديدة في عالم عناوين المقالات. وسيكون علي أن أتحمل ما سوف يكتبه موقع (بص وطل) على الهامش الأيسر للصفحة: (أحمد خالد يكتب مقالاً مثيرًا للغرائز).. فكرت في عنوان أكثر جاذبية مثل (مقال جنسي فاحش)، لكني بهذا أختبر صبر موقع (بص وطل) أكثر من اللازم، ومن الوارد جدًا أن تصلني تلك المكالمة الجافة المهذبة التي تخبرني أن التعامل معي قد انتهى..

هناك كذلك شيء مضحك في العناوين من هذا القبيل ولا أعرف

---

* نشر في موقع بص وطل على شبكة الإنترنت

كيف أصفه. في فيلم أمريكي تقول البطلة إن البطل يحتسي الشراب في فندق حقير. في اللقطة التالية نرى لافتة كتب عليها (فندق حقير) ونرى البطل من النافذة يشرب بلا توقف..

بالطبع لا أشك في موقفك الأخلاقي، فأنت هنا بدافع الفضول وليس دافع الحماسة للعنوان، ولا أشك في انك تقرأ المقال لتعرف النقاط التي ستهاجمني عليها بعد الانتهاء منه، لكن لا تنكر أنه عنوان قادر على الجذب..

في أيام الكلية، كان صديق عمري (أيمن الجندي) يصنف الكتب التي لم يعد بحاجة لها، فكنا نأخذها لعم (محمد) بائع الكتب القديمة العجوز ليبدلها لنا. وجدنا لدى (أيمن) كتابًا قديمًا ممزقًا بلا غلاف.. تصفحنا محتوياته فوجدناه يشرح بالتفصيل الممل التكوين الهيكلي للجنة المركزية للاتحاد القومي.. مما يعني أن هذا الكتاب غير قابل للتبديل تحت أية ظروف، ما لم نجد قارئًا شغوفًا بالاتحاد القومي عاشقًا له من الطراز مقروح الجفن المسهد إياه. هنا تناول صديقي الثالث الكتاب وبيد واثقة قطع قطعة من الورق الأبيض

بذات الحجم، وألصقها في موضع الغلاف، ثم بخط جميل جدًا كتب العنوان: (العشيقة وسفاح النساء)، وحتى لا يكون كاذبًا فتح الكتاب وراح يكتب في صفحات متفرقة:

-"قالت العشيقة: أنا خائفة من سفاح النساء"

-"وهنا ظهر السفاح ليفتك بالعشيقة"

العشيقة وسفاح النساء عنوان عبقري جدًا، يداعب الغرائز المنحطة كلها: الجنس والعنف، ويدل على موهبة خارقة في الارتجال. عندما حملنا الكتاب لعم (محمد) اتسعت عيناه حماسة وأخذ هذا الكتاب بالذات، وقال لنا:

-"سوف آخذ أي عدد من الكتب الشبيهة بهذا!"

لا أعرف من الذي ابتاع كتاب (العشيقة وسفاح النساء) في النهاية، ليجد أنه يشرح تكوين الاتحاد القومي، ولا أعرف ما فعله ولا ما قاله، لكني أعرف أنها كانت عملية نصب محكمة.. فقط لست نادمًا عليها لأن من ابتاع هذا الكتاب استحق ما حدث له..

لا أدعي كما قلت أنك هنا لذات السبب، وإنما هو الفضول لمعرفة ما يمكن أن يقوله مقال يحمل هذا الاسم الصادم. الآن قمنا بجذبك للصفحة، وهذا فتح في حد ذاته..

كانت هذه مقدمة طويلة للمقال، أما عن المقال نفسه فيتلخص في المشكلة التالية:

قال وزير الصناعات الزراعية والسلع الماليزي إن ماليزيا تخطط لزيادة إنتاج المطاط بحلول عام 2012 من 1,4 طن لكل هكتار سنوياً في الوقت الحاضر إلى 1,87 طن لهكتار واحد، وأضاف أن الوزارة تعمل حالياً على إنتاج استنساخ أفضل لشجرة المطاط من أجل زيادة الإنتاج، وترصد إنتاج المطاط في المزارع الكبيرة والصغيرة لينتظم بشكل أفضل. إن ماليزيا ثالثة أكبر الدول المنتجة للمطاط بعد تايلاند واندونيسيا. على الرغم من ذلك، فإن الإنتاج سجل تراجعاً بنسبة 24,4 بالمائة على أساس سنوي، بحسب إدارة الإحصاءات الماليزية في بيان صدر عنها.

السؤال هنا هو: لماذا تراجع الانتاج برغم خطة وزارة الزراعة

الطموح؟... وكيف تتقدم ماليزيا تايلاند في إنتاج المطاط؟

كما ترى هو موضوع حي وشائق ومثير، ولهذا بذلت جهدًا كبيرًا حتى أقتادك إلى هذه الصفحة، ورأيك يهمني فعلاً.. أتوقع منك أن تكتب تعليقًا يقنع الموقع بأن هناك من يقرأ لي بينهم.. ربما كانوا يستعملون عداد صفحات أو تقنية مماثلة، لكن التعليقات تساعد إلى حد ما في قياس رواج المقال..

هناك تعليق أبدي.. أو كما يقولون **Omnipresent** (كلي الوجود) يقول:

ـ"بصراحة مقالة جامدة آخر حاجة.."

هذا التعليق سوف تجده في كل مقال في كل أسبوع تقريبًا، ولا أفهم بصراحة سبب وضع كلمة (بصراحة) في كل تعليق لكنها الحقيقة بصراحة. (آخر حاجة) هي التطور الطبيعي لكلمة (طحن) التي صارت قديمة و(خنيقة)، وهناك تطور آخر بذيء جدًا لا يمكن ذكره .. كان هناك تعليق على مقال عن وباء خطير يقول: "بصراحة يا جماعة الوباء ده جامد آخر حاجة"، وهي معلومات مهمة كما

ترى. لكن هذا التعليق أفضل على كل حال من الشتائم، وهناك قارئ يعلق دومًا بـ (اتقوا الله في عقول الشباب) دون أن يغير حرفًا سواء كان المقال عن غزة أو آخر ألبوم لتامر حسني أو ارتفاع أسعار الطماطم. ذكرني هذا بالمواطن البريطاني الذي يحتفظ بلافتة كتب عليها: (يا للعار!!) يستعملها في كل مظاهرة على سبيل توفير النفقات. وقيل إنه استعملها عندما خرجت البلدة ترحب بمرشحها في الانتخابات.

أما لو كان التعليق من فتاة (روشة) فغالبًا هو:

ـ"بصراحة نايس وكول آخر حاجة"

أو :

ـ"ثانكس"

التعليقات على قصص الستريبس غالبًا لا تخرج عن اثنين:

ـ"هههههههههههههه.. بيحصل فعلاً"

ولا أعرف ما هو اللي بيحصل فعلاً.. لكنه بيحصل فعلاً بالتأكيد..

أو :

"باااااااااااااااااااااااايخة.. ايه السماجة دي؟"

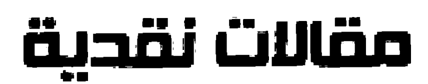
هناك قارئ لا يكف عن الشكوى في كل المقالات:

-"أرجو من إدارة الموقع نشر تعليقي كاملاً وأن تلتزم الأمانة "

وهو نفس القارئ تقريبًا حتى إنني لا أعرف سبب اضطهاده بهذا الشكل. واضح أنه لم يستطع نشر حرف منذ إنشاء الموقع.

أعتقد أن بوسع من ينزل التعليقات أن يكتب دراسة ممتازة طريفة فعلاً، لكن هذا ليس موضوعنا على كل حال.. كل ما أطلبه هو أن تعلق تعليقًا طيبًا من طراز (كووول آخر حاجة) يجعل الموقع أقل رغبة في طردي، ثم أن تخبرني برأيك بصدد المطاط الماليزي لأن الموضوع ساخن وحيوي وخطير.




مقالات نقدية



بحب السيما

مع الاعتذار طبعًا للفيلم الجميل الذي قدمه (هاني جرجس فوزي)، لكني لم أجد عنوانًا أفضل خاصة والفيلم يحكي في ثلثه الأول طفولتي تقريبًا. أشك فعلاً في أن أي مخلوق على ظهر الأرض أحب فن السينما كما كنت في صباي، وكنت انبهر بكل شيء فيها.. بالخدوش على جانب الكادر وعلامة تغيير البكرة، والجلوس في الظلام بانتظار الشعاع المحمل بالأحلام الملونة القادم من نافذة العرض.. عشقت صوت هدير الآلة واهتزازها ورائحة التبغ (كان التدخين مسموحًا به في دور السينما وقتها) وذرات الغبار المتطايرة في الشعاع. .

فيما بعد قدم اثنان من عاشقي السينما هما تارانتينو ورودريجز فيلم Grindhouse وهو يحمل تحية خاصة لأفلام

السبعينيات، وقد حرصا على أن يحمل الفيلم المصور حديثًا نفس الخدوش واهتزاز آلة العرض كما كان يحدث في الأفلام القديمة. نفس طريقة كتابة التترات وصوت المعلق.. حتى ان الفيلم يحترق ويذوب في إحدى اللقطات. بالطبع كنا جميعًا نعشق عبارة (العرض القادم) الذي لم نكن نعرف أن اسمه (تريلر)، وبسبب هذا الحب قدم المخرجان المجنونان إعلانات عن عروض قادمة لأفلام لم توجد قط، على غرار (ماشيتي) و(لا تفعل).. الخ..

لم يقتصر حبي على ما نراه على الشاشة بل امتد إلى دار السينما نفسها.. كل ركن فيها حتى الحمامات عطنة الرائحة وحتى العامل الذي يقودك لمقعدك.. كنت اعتبر هؤلاء سحرة ممن يملكون مفاتيح هذا العالم الخيالي، فلا استبعد أنه بعد ما نرحل يجلس طرزان وجيمس بوند وفرانكنشتاين وشيرلوك هولمز مع هؤلاء.. بينما يذهب أحد عمال السينما لشراء شطائر للعشاء، ويجلس الجميع يثرثرون ويمزحون.. طبعًا يتوتر الجو نوعًا عندما يصل الكونت دراكيولا، لكنه لن يمتص دماء زملاء المهنة طبعًا!

أذكر جولاتي حول الأبواب الخلفية لدار السينما بحثًا عن مفاجأة من السليلويد.. هناك أجزاء فيلم تنقطع ويتخلص منها العامل.. هكذا أجمعها أنا واهرع للبيت منتشيًا لأقوم بدراستها بالعدسة.. ثم أضعها في مركز بؤرة عدسة وأضيء مصباحًا خلفها ليصير عندي فانوس سحري مرتجل، وأدرس الكادر على الجدار..

ذات مرة وجدت كادرات من فيلم ملون أجنبي.. وحتى في سن العاشرة كنت أعرف أن هذه لقطات مضغوطة من فيلم سينما سكوب، وفيما بعد تقوم عدسة (الهيبر جونار) بفرد الصورة لتصير عريضة. كانت اللقطة التي لفتت نظري تظهر رجلاً أفريقيًا يلبس جلد نمر ويحمل رمحًا وخلفه مشاعل، وهناك ترجمة عربية تقول: "النائمون؟.. عملية سهلة"..

هكذا راح خيالي يعمل كالمجنون لتخيل ما كان قبل وبعد هذه الجملة. هذا الرجل كما هو واضح قاتل.. على الأرجح هو من قبيلة من أكلة لحوم البشر. هناك من كلفه بمهمة مهاجمة معسكر فيه نائمون.. سوف يذبحهم وهم نيام وبالتالي هي عملية سهلة. هل

المعسكر الذي ينوي مهاجمته خاص بالرجل الأبيض أم بقبيلة أخرى؟.. لو كانت قبيلة أخرى فلماذا يكلفه شخص آخر بهذه المهمة؟

جربت مرارًا أن أسأل كل اصدقائي عما إذا كانوا رأوا أفلامًا فيها عملية سهلة تتضمن قتل النائمين. لكن لم أجده قط. .

أعتقد أنني رأيت ما يشبه هذا الجنون بوضوح في (بحب السيما) وبوضوح في (سينما باردايسو).. ويبدو أن الطريق كان ممهدًا أمامي لأصير مخرجًا أو مصورًا أو عامل عرض، لكنني صرت طبيبًا في ظروف مجهولة..

لم يأت هذا الحب من فراغ، إنما تكون نتيجة لولع أبي الخاص بالسينما. كان يوم الثلاثاء هو بداية الأسبوع السينمائي، فكان أبي يصحبني معه للسينما في ذلك اليوم كل أسبوع. في البداية كان يصحب الأسرة كلها، ثم وجد أن العبء المادي والمعنوي ثقيل وأننا معًا سنكون اخف بكثير. .

تبدأ الأمسية بشراء شطائر السجق من مطعم قرب دار السينما، ثم نتجه لتجلس في مقاعدنا.. كلمني أنا عن الإثارة العظيمة

للانتظار في الظلام، ثم تسمع هدير آلة العرض وتظهر بطاقة الرقابة ثم أسد مترو جولدوين ماير على الأرجح.. ربما حاملة الشعلة الخاصة بشركة كولومبيا أو كرة يونيفرسال الأرضية أو جبل باراماونت.. هناك أفلام كانت تظهر رجلاً وامرأة يحملان شعلة وهذه علامة شركة موسفيلم السوفييتية. تخصصت سينما أوديون في عرض هذه الأفلام وفي ذلك الوقت كانت كلها حربية.

المهم أن أبي كان من يختار الفيلم طبعًا، وبالطبع لم يكن مولعًا بأفلام طرزان أو أفلام كنج كونج.. لذا لاحظت أشياء معينة..

في البداية كانت هناك دائمًا دبابات وهناك ضباط نازيون وصلبان معقوفة.. هناك دائمًا قصف مدفعية وطيران وجيوش تلتحم ببعضها، ثم يظهر هذا الجنرال أو ذاك ليصرخ:

ـ"يجب الاحتفاظ بالجسر!"

لكنهم لا يحتفظون بالجسر، وتنهال عليه القنابل ليملأ الدخان الشاشة.

كنت أستمتع بهذا كله، وعرفت معلومة جديدة هي أن الأفلام

التي تعرض في السينما حربية دائمًا، فلا يمكن أن تكون عاطفية أو غنائية أو مضحكة كالتي يعرضها التلفزيون. السينما مكان تجلس فيه في الظلام تأكل السجق وتشاهد النازيين.. لا يوجد لها تعريف آخر.

أبي كان يعشق الأفلام الحربية، وكان يحكي لي عن موقعة نورماندي واقتحام برلين وغزو فرنسا.. الخ.. كأنه يحكي قصة حب قديمة.. بل إنني بلغت درجة رأيت فيها نفس المعركة بعدة أساليب سينمائية. الأسلوب الأمريكي المبهرج المليء بالبذخ، والأسلوب السوفييتي الكئيب بإيقاعه البطئ .

لم يلحظ أبي التغيرات التي طرأت علي مع الوقت. .

لقد صرت أتصرف كضابط نازي فعلاً.. أمشي مثلهم وأمد يدي مشدودًا وأصيح:

-"هايل هتلر!"

لقد صار العالم بالنسبة لي دبابات محترقة وطائرات تقصف المشاة في الصحراء.. وألغامًا تنفجر فتطير السيقان. كانت أمي هي أول من لفت نظر أبي إلى تأثير هذه الأفلام علي، فقد صرت أمشي

متخشبًا، وأرسم الصليب المعقوف على كـل كراساتي، وأؤدي التحيـة النازية ألف مرة في اليوم.. دعك من أنـني بـدأت أحلـم بوضـع القـط في الفرن، وصـرت أطلـق علـى مـدرس اللغـة العربيـة لقـب (الفـوهرر).

سألني أبي عما إذا كنت أحب الأفلام الحربية فقلت في حماسة:

-"يا!"

سألتني عما إذا كنت أرغب في مـشاهدة نـوع آخـر مـن الأفـلام فقلت (ناين).. قال لأمي إن كل شيء على ما يرام.. لكن أمـي لم تبـد مقتنعة. .

خيرته أمي بين اختيار نوعية أخـرى مـن الأفـلام أو الامتنـاع عن الذهاب للسينما نهائيًا .

هكذا وجد أبي أن عليـه أن يقلـع عـن غرامـه الـشديد بـالأفلام الحربية ويكتفي بما يـراه منهـا يـوم الأحـد في التلفزيـون في برنـامج اسمه (السينما والحرب). رحت احاول إقناعه بمشاهدة أفـلام طـرزان فلم يبد متحمسًا.. كان يرى أن أسخف شيء في الدنيا أن يجلـس المـرء يشاهد رجلاً يحيا وسط القرود ويتدلى بحبل من الأشجار..

يوم الثلاثاء التالي اصطحبني أبي للسينما وابتاع لـي الـسجق، ثـم حـدثني عـن أهميـة أن نـرى أنواعًـا أخـرى مـن الـسينما فليـست المدرعات هي كل شيء .

الفيلم الذي شاهدناه في تلك الليلـة الـسوداء كـان يظهـر امـرأة تركض صارخة في صالة دارها.. تـدخل غرفـة نومهـا وتغلقهـا. طبعـاً لينفتح ستار المخدع ويخرج من خلفه الأخ كرسـتوفر لـي والـدم يـسيل من جانب فمه.. له أنياب كالذئاب وعينه حمراء كعين طالـب ثانويـة عامة ليلة الامتحان. .

هذا هو الأخ دراكيولا..

ولم أتصور قط أن العالم يحوي هذا القدر من الرعب، ولفترة لا بأس بها كنت أنام لـصيق أبـي في الفـراش كخفـاش.. يتقلـب فأتقلـب معه. ينهض فأنهض معه.. وصرت أمقت أي مكان أكـون فيـه وحـدي في أي وقت. برغم هذا أثار دهشتي أنني راغب في المزيد.. أريد رؤيـة أكثر..

فيما بعد عرفت أن معظم هذه الأفلام هي من إنتاج شركة هامر

البريطانية، وهي أفلام سوف تضحكك جدًا لو رأيتها اليوم لكني وقتها لم أكن على أي استعداد للضحك... هكذا بدأت حقبة جديدة لأفلام من نوعية (دراكيولا مصاص الدماء) و(دماء من أجل فرانكنشتاين) و(ليلة الموتى الأحياء).. الخ. ..

مع الوقت أدرك أبي أنني راغب فعلاً في مشاهدة هذه الأفلام فبدأ يصحبني بانتظام...

ومع الوقت لاحظت أمي أنني تخليت عن نازيتي لأمور أهم.. صحيح أنني بدأت أتغير وصحيح أنني كدت أمتص دم أختي وهي نائمة، وكدت أقتل ابن خالتي بوتد في صدره (عصا المكنسة المكسورة)، ورحت أحلم بقضاء النهار كله نائمًا في تابوت..

هذا التثبيت الشديد أدى في النهاية إلى أن أكتب قصص الرعب.. ربما كانت وسيلة لأكون خلف المدفع ولا أظل أمامه.. أن تخيف الناس يوهمك بأنك أكثر شجاعة..

في المدرسة الإعدادية ظهر اختراع جديد تحدث الكل عنه. الاختراع يدعى بروس لي وهو رجل آسيوي نحيل عصبي يصدر صوتًا

كـالبط المختنـق ويقـدر علـى هزيمـة عـشرة رجـال.. دخلـت الـسينما لأكتشف هذا البروس لي ويبدو أن كل صبية تلك الفترة دخلوا معـي، وهكذا بدأت حمى بروس لي في حياتنا جميعًا.. والنتيجة هـي أنـوف تنزف وركب محطمة وكسور ورضوض لدى الجميع..

هنا كان أبي قد كف عـن اصـطحابي للـسينما.. لم يعـد يـذهب للسينما بتاتًا كأنه تشبع أو سئم اللعبة، وتركني أختار الأفـلام الـتي تروق لي.ولا شك أن أول رحلة قمـت بهـا للـسينما مـع رفـاقي كانـت مغامرة مثيرة فعلاً... الفيلم كان يدعى (ما زلت أدعـى تـرينتي) وقـد حكيته لكل مخلوق على الأرض حتى أوشكوا على الانتحار..

في الأعـوام التاليـة رأيـت كـل الأفـلام الغربيـة الرديئـة الـتي يطلقون عليهـا (افـلام الحـرف ب). وسـر الحـرف (ب) هـو أن هـذه الأفلام لم تكن تعرض وحدها وإنما ضمن برنامج مـن فـيلمين، وكـانوا يطلقون على الفيلم الأول (أ) دلالـة علـى أنـه أرقـى واكثـر تكلفـة. لا ننكر أن الأفلام (ب) مسلية ولها من يحبونـها.. إن في تفاهتها سـحرًا خاصًا بلا شك. فمن أفلام العصابات التي تضع مخططًا محكمًـا للـسطو

على المصرف، إلى أفلام المواد المشعة التي تكمش الأشخاص أو تكبرهم أو تجعل الموتى يصحون من قبورهم. وحتى أفلام الكونج فو ذات الصبغة الصفراء البنية المميزة..

كانت هناك ممثلات تخصصن في أفلام حرف (ب)، ويطلقون عليهن (ملكات الصراخ)، لأن دور الفتاة منهن لا يزيد على أن تصرخ وأن تكون حسناء. ومن العلامات السهلة على هذه الأفلام أن ترى صورة وحش بحري أو مسخ من تحت الأرض أو هيكل عظمي حي، يحمل فتاة صارخة .

إن الدب لا يفرق بين فتى وفتاة في الالتهام، ولعله يفضل الفتى لأن عضلاته أضخم وغالبًا مذاقها أفضل، أما عن الجمال فلا شك أنه يفضل دبة تشبهه.. وبالتأكيد يرى الفتاة قبيحة كالدببة. هذا هو المنطق السديد.

يحاول صانعو هذه الأفلام إقناعنا بأن هذه المسوخ والوحوش

تفضل الفتاة الحسناء البشرية مثلنا.. وهكذا ترى صورًا غاية في الغرابة مثل كائن المريخ الذي له ثلاث أعين ويخرج لسانه من قفاه وله ذراع واحدة في منتصف صدره.. هذا الكائن يحمل فتاة حسناء صارخة ويفر بها بينما البطل الأرضي يطلق عليه مسدس الليزر. ماذا سيفعله المسخ المريخي بها؟.. بالتأكيد هو بحاجة إلى فتاة مريخية مثله لها ثلاث أعين ويخرج لسانها من قفاها ولها ذراع في منتصف الصدر. لابد أن هذه الفتاة تبدو له مقززة..

هكذا قضيت شبابي في عشق مستحيل لهذا الاختراع الساحر.. احتجت لوقت طويل جدا حتى تعلمت أن أتعامل معه بحيادية أو لا مبالاة. اليوم لم أعد أهتم به بنفس الجنون السابق، وكعادة كبار السن أقول لنفسي: لم يعودوا يصنعون الأفلام كما كانت في الماضي. ربما هذا صحيح وربما ذبلت حلمات التذوق على لساني.. تلك التي كنت انوق بها هذه الأفلام في مراهقتي. وربما أن كثرة وسائل الترفيه وسبل

الإبهار جعلت السينما بلا طعم، بعد ما كانت نافذة السحر الوحيدة في مراهقتي..

لا أعرف حقًا.. لكني أتمنى يوم ثلاثاء واحدًا من أيام أبي.. وشطيرة سجق وفيلمًا من أفلام الحرب العالمية الثانية يدور حول جسر ما يحاول النازيون نسفه.



إنفكتوس: أنا قبطان سفينة روحي

وأنا في مخالب الظروف المهلكة

لم أجفل أو أصرخ عاليًا..

وتحت هراوات القدر

غطت الدماء رأسي..

لكنه لم ينحن..

لا يهم أن البوابة ضيقة

وأن لائحة الأحكام مفعمة بالعقوبات ضدي..

فأنا سيد قدري..

وأنا قبطان سفينة روحي

هذه أبيات من قصيدة للشاعر البريطاني (هنلي) كتبها عام 1875، وتحمل عنوان (إنفكتوس Invictus) أي (الذي لا يقهر) باللاتينية. هذه الأبيات التي كان نلسون مانديلا أو (ماديبا) يطالعها في سجنه الطويل لتمنحه الأمل، هي مصدر هذا العنوان الغريب للفيلم الذي قدمه الممثل والمخرج العالمي (كلينت إيستوود) العام الماضي. الشاعر كتب هذه الأبيات وهو في المستشفى ينتظر بتر ساقه، بينما مانديلا كان يطالعها كل ليلة في زنزانته التي قضى فيها 27 عامًا، قبل أن يخرج منها ليحكم جنوب أفريقيا.

شاهدت الفيلم مؤخرًا فأعجبت بـ (مورجان فريمان) في دور مانديلا أداء وكتابة. يصعب أن تتخيل أي ممثل آخر يمكن أن يقوم بهذا الدور سوى فريمان، وإن كانت اللهجات غير المقنعة للأفريكانس والسود سببًا رئيسًا في تعكير مزاج المشاهد الغربي، دعك من إلمام المشاهد الغربي غير الأمريكي بقواعد لعبة (الرجبي) التي يتمحور حولها الفيلم مما جعله يكتشف عدة أخطاء. وهو كذلك يحفظ شكل (فرنسوا بينار) كابتن فريق الرجبي لجنوب أفريقيا، فلم يستطع أن يبتلع إسناد دوره لمات ديمون. إن حرص المشاهدين

الغربيين على الدقة قد يبلغ درجة زائدة عن الحد، مثل سماع لحن أغنية لم تكن قد كتبت وقت أحداث الفيلم، أو أداء جندي للتحية بطريقة لم تكن مستعملة في حرب معينة. هذا يكفي لإفساد أي فيلم بالنسبة لهم. يقولون مثلاً إن فريق نيوزيلندا في الحقيقة لم يكن بكامل لياقته كما ظهر في الفيلم، لأن أفراده كانوا مصابين بتسمم طعام وكانوا يفرغون معدتهم طيلة المباراة. طبعًا هذه أمور لا أعرف عنها أي شيء، لهذا أخذت من الفيلم ما يكفيني بالضبط.

في الفيلم مباريات رجبي عديدة وطويلة، وهذه قد تبدو مشكلة لأننا لا نعرف شيئًا عن هذه الرياضة بالغة العنف، لكنك تكتشف أن بوسعك المتابعة. أو تكتفي بعبارة ذكية وردت في الفيلم: "كرة القدم لعبة سادة يمارسها البلطجية.. الرجبي لعبة بلطجية يمارسها السادة!".

يبدأ الفيلم في الشهور التي تلت تولي مانديلا سدة الحكم بعد مغادرته السجن في جزيرة (روبنس). البيض (الأفريكانس) الذين اعتادوا أن يكونوا الظالمين قلقون جدًا من أن يلعبوا دور المظلومين في

الدولة الجديدة. عنصرية مضادة تولد في كل مكان مع رغبة جامحة في معاقبة هؤلاء.. حالة قرف عامة من كل ما هو أبيض. في مشهد افتتاحي مهم يدخل مانديلا ليقابل موظفي الحكومة البيض المتحفزين الذين جمع أكثرهم حاجياته تأهبًا للطرد، فيقول لهم: "من يشعر بأنه غير قادر على العمل في هذه الحكومة الجديدة يمكنه الرحيل، لكن عن نفسي أؤكد أنني سأكون شاكرًا لمن يختار البقاء منكم ليسدي لوطنه خدمة كبرى.. من يعتقد أنه سيدفع ثمن ولاءاته أو آرائه السابقة، عليه أن يعرف أننا نبدأ عهدنا بالصفح والنسيان"

نتابع تفاصيل حياة الرجل الذي لا ينام.. والذي يثير نشاطه ذهول الحراس المحيطين به. إنه لا يتعب فعلاً، وكلما أبدى أحدهم دهشته قال له: لقد استرحت في السجن 27 عامًا.. فلم أعد راغبًا في مزيد من الراحة! يعتبر نفسه مجرد أب لأسرة تتكون من 42 مليون طفل كما قال مرارًا.. النتيجة هي أنه يغيب عن الوعي مرتين خلال الفيلم بسبب الإرهاق الزائد.

ما يبحث عنه مانديلا هو مشروع موحد.. مشروع يجمع بين

السود والأفريكانس ويجعلهم يدركون أنهم أبناء وطن واحد..

الفرصة التي سنحت له هي عندما قرر أعضاء الحكومة السود تسريح فريق الرجبي المدعو (سبرينجبوكس).. إن نتائجه سيئة في اللعب ويخسر دائمًا.. دعك من أن أفراده جميعًا بيض باستثناء لاعب واحد. يتم الاقتراع وتأتي الموافقة بالإجماع على التسريح. يسمع مانديلا بالقرار فيهرع ليقتحم المجلس.. تذكره سكرتيرته بأن عليه أن يخضع لقرار الأغلبية، فيقول لها: "هذه من اللحظات التي تكون فيها الأغلبية على خطأ.. ويكون على القائد أن يخبر الناس بالصواب.."

ويقول للمجتمعين: "أنتم اخترتموني قائدًا فدعوني أقود.. نحن نبني بلادنا وبحاجة إلى كل قطعة قرميد أمامنا، حتى لو كانت هذه القطعة قد استخدمت في ضربنا في الماضي. لو أننا عاملنا البيض كما تريدون لعرف العالم أنهم كانوا محقين عندما اعتبرونا متخلفين ووحوشًا.. ولبرهننا للبيض على أن معهم حقًا في خوفهم منا"

هكذا يقدم درسه الأول: الجماهير قد لا تكون على حق طيلة

الوقت. من الخطأ أن ندع شهوة الانتقام تجرفنا. إن جنوب أفريقيا سوف تستضيف كأس العالم في الرجبي العام القادم 1995، لذا يراهن مانديلا على أن بلاده ستفوز بكأس العالم بهذا الفريق الأبيض الضعيف. يضع كل ثقله لمساندته، ويتعلم الكثير عن هذه اللعبة العنيفة.. بل إنه يرغم الفريق على القيام بجولات في القرى والأحياء الفقيرة ليختلطوا بالفقراء السود ويعلموهم اللعبة ويصلوا إلى قلوبهم.

الفيلم يتحدث كثيرًا عن العلاقة بين رئيس الجمهورية وكابتن الفريق (بيينار) – الممثل مات ديمون – الذي يحاول مانديلا أن يبث فيه روح الثقة، ويخبره بقصيدة (إنفكتوس) التي جعلته يتحمل ثلاثة عقود في الزنزانة. ويصل الفيلم ذروته العاطفية عندما يزور (بيينار) الزنزانة الضيقة التي قضى فيها مانديلا أعوام سجنه، والحشية على الأرض التي كان يقضي الساعات جالسًا عليها يقرأ ويتأمل. نسمع القصيدة تتردد طيلة الوقت: " فأنا سيد قدري..وأنا قبطان سفينة روحي"

تتم المباراة النهائية في جو حماسي.. فريق جنوب أفريقيا أمام

فريق نيوزيلندا المرعب المعروف باسم (كله أسود). ونرى طقوس تخويف العدو النيوزيلندية التي هي رقصة حرب من رقصات قبائل الماوري تدعى (الهاكا). تبدأ المباراة الطويلة جدًا والتي توحد فعلاً بين البيض والسود.. لا يوجد أبيض ولا أسود. هناك شعب واحد اسمه شعب جنوب أفريقيا.. وتنتهي المباراة بالفوز لفريق جنوب أفريقيا فيتعانق الجميع بعيون دامعة. ما زالت مشاكل الفقر والجريمة كثيرة جدًا.. لكنها على الأقل لن تضم الصراعات العرقية بينها..

مانديلا شخصية نادرة لا يجود بها الزمن إلا كل مائة عام، لكنك تدرك بوضوح أن الزنزانة كان لها فضل كبير في صياغة هذا الرجل. وينتهي الفيلم وأنت تتذكر كلمات القصيدة بصوت مورجان فريمان الرجولي المؤثر:

وأنا في مخالب الظروف المهلكة

لم أجفل أو أصرخ عاليًا..

تحت هراوات القدر

غطت الدماء رأسي..

لكنه لم ينحن..



711

عندما تقدم فيلمًا تسجيليًا عن شيء جميل فأنت قد تزيده بريقًا وألقًا وقد تفسده تمامًا. قناة ناشونال جيوجرافيكس مثلاً تقدم لنا روائع الطبيعة بالاستعانة بأعظم مصورين ومخرجين على ظهر البسيطة.. النتيجة معروفة للجميع ولا تحتاج إلى شرح. هكذا نحن نتكلم من روعة الموضوع وروعة تقديم روعة الموضوع!

هذا الفيلم التسجيلي الذي قدمته قناة الجزيرة عن قناة (711) – ينطقونها سفن إليفن – كان قطعة من الفن الرفيع، ويسهل جدًا أن نتخيل ما كان سيحدث لو قدم بالطريقة المعهودة.. مذيعة تصبغ شعرها بالأكسجين وتحمل ميكروفونًا وتوجه أسئلة سخيفة،

ثم تلتقي بهذا المسئول أو ذاك من مسئولي الشباب في الإدارة المحلية لسمنود. باختصار: برنامج سخيف لا يذكره أحد ويُذاع في ساعات العصر الميتة.

لحسن الحظ وقع هذا الموضوع في أيدي شباب متحمسين أحبوه جدًا، وكانوا يعرفون ما يفعلون .. البراء أشرف مخرجًا وكاتبًا.. وعلي عبد المنعم كاتبًا.. وهاني فخري مصورًا.. وهاني فريد مونتيرًا. النتيجة هي فيلم تسجيلي ساحر مدته ساعة، وأعتقد أنه جدير بالمركز الأول في أية مسابقة عادلة للأفلام التسجيلية. يجب أن أؤكد هنا أنني لا أعرف أي واحد من هؤلاء الشباب، وأنني بحثت كثيرًا عن رقم هاتف الأول لأبلغه بمدى إعجابي بهذا العمل.

موضوع الفيلم هو قناة تلفزيونية يعرفها سكان سمنود بمحافظة الغربية جيدًا.. قناة خاصة تُذاع عن طريق الكابل اسمها (711)، وهي محلية جدًا لا تهتم إلا بما يدور في محيط سمنود..

لمن لا يعرف؛ سمنود مركز من مراكز محافظة الغربية يقع قرب المحلة الكبرى. كانت عاصمة الأسرة الثالثة في مصر القديمة

وتعج بالآثار، وكانت فيها وقفة مهمة أثناء رحلة العائلة المقدسة، كما أن اسمها يُذكر كثيرًا في تاريخ الحملة الفرنسية على مصر لأنها كانت تتعاون مع المنصورة البلدة المشاغبة المجاورة.. من أبناء سمنود (مصطفى باشا النحاس) و(د. نصر فريد واصل) والصحفي (جلال دويدار) والفنانون (أمينة رزق) و(عبد المنعم إبراهيم) و(سهير المرشدي). لكن سمنود في النهاية بلدة صغيرة جدًا وفقيرة، لهذا يغدو من الغريب أن تكون لها قناة محلية خاصة..

يلتقط الفيلم هذه الجوهرة النادرة المثيرة ويقدمها لنا. يعرفنا على الثلاثة المسئولين عن هذه القناة والذين ينتجون ويصورون ويكتبون ويخرجون ويبثون.. ويفعلون كل شيء. صاحب الفكرة نفسه من الطراز الذي يوشك على الانفجار من المواهب التي لا يعرف كيف يقدمها.. صحيح أنها مواهب خشنة جدًا وفطرية ولم تحظ بثقافة تصقلها، لكنه نموذج مثير بكل تأكيد.. عمل (مونولوجست) لفترة، وهو شاعر عامية ومصور هاو ومخرج، ولديه خلفية ممتازة في الإلكترونيات.. هذا هو بطل الفيلم الأول الذي يجعلنا الفيلم نعيش معه ونركب معه (المكنة)، ونلعب معه الكرة الشراب في الحارة،

ونجلس معه على المصرف ليلاً نشرب الشاي.. حالم لا يتوقف عن الحلم، لدرجة أنه يكتب مسلسلاً إذاعيًا يمثل فيه ويخرجه، ويحلم بأن يحوله يومًا ما إلى مسلسل تلفزيوني. يصور حفل زفاف في حارة.. حفل زفاف شعبيًا من الطراز الذي تحضره الحارة كلها ويلبس فيه العريس بذلة سكرية اللون وتؤجر العروس ثوب الزفاف. يجلس مخرجنا مع طفلة جميلة ليعلمها كيف تقدم فقرة دعاية للقناة، و(يتقصع) في دلال ليعلمها كيف تقول (عقبال عندك يا أم فاروق).. ثم يصوب الكاميرا على الطفلة ويصور أداءها مرارًا. كل شيء حقيقي.. كل شيء له رائحة.. كل شيء أصيل.. الألوان الفاقعة (الملغوصة) نوعًا والذوق الشعبي البسيط. إن الفيلم يقترب جدًا من الناس البسطاء، ولأنه أحبهم حقًا فقد استطاع أن يجعلك تحبهم...

إنهم طبيعيون جدًا، وقد صار من رابع المستحيلات أن تقابل شخصًا طبيعيًا في هذا الزمن. لا توجد ذرة إدعاء لديهم.. وهذا ما نجح الفيلم في اقتناصه.

مع الوقت كون الرجل فلسفته الخاصة بالحياة، وهي فلسفة

طريقة بدورها تنبع من عمله:

ـ"أنا حطيت كل أحلامي على الدسك توب.. معنديش أحلام مؤجلة. بس باقلب أحلامي زي ما بنقلب الوصلة.. كل شوية أجرب حلم جديد.."

ثم يتحدث عن السادة البعيدين جدًا عن عالمه:

ـ"هما عندهم الواسطة... واحنا عندنا الوصلة"

إنه موجود.. إنه حي.. يتكلم وهناك من يسمع صوته وينتظره.. فليذهب السادة إلى الجحيم. كل سمنود تعرف قناة 711 وتنتظرها وتحول المؤشرات لها. لكن القناة لا تقتصر على الإعلانات، فهي تقدم المباريات الرياضية وتقدم الأفلام الأجنبية التي يحملها من الإنترنت.. ولأنه يعرف ما يريده الناس ولأنه منهم، فهو يجري عملية حذف للقطات العارية من الأفلام بنفسه.

إنهم يلعبون بالنار ويقتربون منها جدًا.. لابد أن أكثر من جهة أمنية تراقب قناة كهذه خشية أن تتطرق إلى مواضيع سياسية، لكنه لا يقع في الفخ.. يؤكد مرارًا (ما لناش دعوة بالسياسة) وهو

الدهاء المصري القديم الذي يتعلمه المصريون مبكرًا.. ابتعد عن الحكومة بأي شكل.. احن رأسك لحامل مفاتيح الفرعون كي يظل بيتك مفتوحًا.. لتكن لك حياتك الخاصة المنفصلة عنها. هو كذلك يعرف أن ذئب (المصنفات الفنية) يعوي ويتشمم الهواء، ولسوف يخرج للظفر بهم بالتأكيد.. لابد أنهم أجروا بروفة ذلك اليوم مرارًا..

قناة يقدمها ثلاثة من متوسطي التعليم في حارة. الدليل الحي على أن الشعب المصري مشاكس واسع الحيلة ولا يموت أبدًا. عندما لا يصير العالم عالمه فهو يخلق عالمًا خاصًا به.

هذا ما أعجبني في قناة 711، أما عن النعومة والحب اللذين قدم بهما الموضوع فحدث بلا حرج. بمزيج من حساسية الصحفي والفنان والصائغ تمكن صناع الفيلم من التقاط هذه الجوهرة، ولمدة ساعة شعرت بأنني أحب سمنود وأحب هذه الحارة وهؤلاء القوم. تحية للبراء أشرف وعلي عبد المنعم وكل من قدموا هذا العمل، ليصنعوا هذا الجمال المركب الذي لا يوصف ولكن يُشاهد.

إميلي: عشق التفاصيل الصغيرة

أفسحوا الطريق للجمال.. للدانتيلا.. للعذوبة والشعر..

أفسحوا الطريق للذائذ الحياة البسيطة العابرة التي لا يمكن وصفها..

أفسحوا الطريق للسمراء الرقيقة ذات العينين الواسعتين والنظرة الماكرة الطريفة..

هذه هي إميلي بولان.. وقبل أن أحكي لك عن إميلي، يجب أن أحكي لك عن الطريقة التي قابلتها بها.. قابلتها بطريقة غير شرعية للأسف..

لست من المولعين بالقرصنة والاعتداء على حقوق الملكية

الفكرية للآخرين، وقد اكتويت بنارها عشرات المرات، لكن بالنسبة لتعامل المصريين مع السينما وعالم البرمجيات فقد قلت رأيي أكثر من مرة؛ وهو أن بعض البرامج الأصلية ثمنها أغلى من جهاز الكمبيوتر نفسه. ماذا سيبقى في مصر وإلى أين ستذهب ثقافة الكمبيوتر لو تعاملنا مع القانون حرفيًا؟.. حتى الكمبيوتر في مباحث المصنفات عليه برامج منسوخة.. مستحيل أن يحدث العكس.. للأسف نكتشف هنا أن القرصنة جعلت كل شاب في مصر يجيد استعمال الكمبيوتر والإنترنت..

الأفلام كذلك عالم آخر..إذا لم يعرض الفيلم في مصر فعليك لكي تراه أن تشتريه بمبلغ لا يقل عن 180 جنيهًا للفيلم الواحد.. طبعًا مستحيل. البديل هو أن تحمله من الإنترنت على شكل تورنت، وهي طريقة يعرفها المتعاملون بها ولها قوانينها الخاصة. أنا أجد أن المشاهد الغربي لن يُرهق كثيرًا بدفع مبلغ كهذا، وفي الوقت ذاته هو يضخ المال الكافي كي تستمر العملية الإنتاجية، فيقدم الفنانون مزيدًا من الأعمال الجيدة. لكن الأمر يختلف في مصر بسبب فارق الدخل الرهيب، ويكون عليك أن تلجأ لسياسة تحميل التورنت. وعلى كل

حال جمهور السينما هو جمهور السينما لم ينكمش. بينما صارت لدى الشباب المصري ثقافة سينمائية لا بأس بها تتضمن السينما الصينية والألمانية والفرنسية واليابانية وقد أثروا تجربتهم فعلاً، وهناك أكثر من مخرج مصري شاب تكونت ثقافته من السينما المكسيكية بالذات.. هل رأيت في حياتك فيلمًا صربيًا في دور العرض؟؟

لهذا أقر وأعترف أنني لم أر الفيلم الفرنسي الجميل (المصير الرائع لأميلي بولان) بالطريقة القانونية المعتادة، ولو أردت فلم أكن لأراه أبدًا.. حصلت على نسخة من الفيلم عن طريق صديق عزيز لن أذكر اسمه هنا طبعًا، فهو مديح يبدو أقرب للتشهير.. كما يكتب لص المصرف في الصحف: شكرًا للزميل (أبو بطيخة) الذي سهل عملية فتح الخزانة لي..

منذ اللحظة الأولى لهذا الفيلم الساحر تجد ثقبًا في عالم الرتابة اليومية.. عالم الملل والقسوة والوجوه التي لا تتغير..

إن الفيلم يبدأ بلقطة شاعرية لشرشف منضدة في مقهى في

مونمارتر، والهواء يداعب الشرشف لكنه لا يستطيع أن يطيره لأن هناك كأسين فارغين.. الفيلم كله يعتبر تنويعًا على هذه اللقطة الشاعرية، وفي نفس الوقت نرى ذلك السيد الوقور الذي عاد من جنازة أعز صديق له فجلس متأثرًا ليمسح اسمه من دفتر العناوين بالمحاة، وفي نفس الوقت نعرف أن كروموسوم السيد بولان X قد التحم مع كروموسوم السيدة بولان.. والنتيجة هي جنين XX أي فتاة صغيرة.. إن الحياة تنتهي من هنا وتبدأ من هنا.. لا يمكن الإمساك بها أو حصارها أبدًا...

هذا هو جحر الأرنب الذي ندخله فلا نخرج أبدًا..

للمخرج جان بيير جونيه فيلم آخر شهير جدًا اسمه (دليكاتسن) أو (مطعم الوجبات الجاهزة)، وهو فيلم مسل جدًا وغريب جدًا.. كوميديا سوداء عن عالم مستقبلي تسوده المجاعة، حيث نجد بناية يمارس سكانها القرعة لاختيار من يأكلونه في كل مرة.. سوف ترى في هذا الفيلم معظم من تراهم في (إميلي) لكنه برغم هذا لا يملق بالذاكرة كثيرًا..

فيلم إميلي الذي أنتج عام 2001 يختلف تمامًا... إنـه يرينـا نمـو الطفلـة الجميلـة الفضولية إميلـي الـتي لا تكـف عـن اللعـب واستكشاف العالم. أبوها طبيـب أطفـال غـير بـارع. أحيانًـا يفحـص قلبها.. هي تفرح لذلك فيدق قلبهـا بـسرعة، لهـذا يفترض أن قلبهـا مريض جدًا... ويحيل طفولتهـا سـجنًا. وهـذا هـو مـا سـيقودنا لتلـك الشخصية المتوحدة الانطوائية: إميلي.

بالنسبة للفيلم الإنـسان هـو مزاجـه الخـاص ومـا يحبـه ومـا يكرهه.. مثلاً نعرف من اللحظـة الأولى أن أمهـا تحـب الاسـتحمام.. تحب القطط الصغيرة.. وتكره أن يلمس أحد يدها وتكره شمور الجلـد المجعد الشمعي بعد الحمام. بالنسبة للأب طبيب الأطفال، هو يحـب السباحة ويحب أن يرص آلاته في صندوق الآلات، ولكنه يكره التـصاق المايوه بفخذيه عندما يخرج من الماء.

إميلي لديها سمكة ذهبية ذات ميول انتحارية، لـذا تفـر مـن الحوض وتسقط تحـت الثلاجـة، فتبـدأ الفتـاة في صـراخ لا ينقطع لأن السمكة تموت.. وفي النهايـة يرفـع الأب الثلاجـة بكوريـك الـسيارة،

وتعود السمكة لحوضها، لكن الثمن فادح فعلاً.. الأم أصيبت بانهيار عصبي تقريبًا، والخلاص الوحيد هو إعادة السمكة للنهر.. أه يا صديقي لو رأيت هذه اللقطات..!... المزيج العبقري من الجمال والشاعرية والسخرية والكوميديا.. شيء لا يوصف..

لقد كبرت إميلي وصارت فتاة رقيقة بالغة الخجل، تلعب دورها أودري تاتو. إنها تعيش حياة انعزالية تمامًا.. ككل المتوحدين خلقت لنفسها حياة كاملة بعيدًا عن الناس. إنها تعمل ساقية في مقهى في حي مونمارتر اسمه (الطاحونتان). وهو مقهى حقيقي تم التصوير فيه. من الأشياء الطريفة المتعلقة بهذا المقهى، أن السياح المعجبين بالفيلم راحوا يقصدونه ليلتقطوا الصور ويحتسوا القهوة، ومع الوقت علق المقهى ملصقات الفيلم وصار من المعالم السياحية المهمة لمونمارتر. عندما زرت باريس عرفت أن صديقي الأديب (أحمد مراد) – صاحب (فرتيجو) و(تراب الماس) – زار المقهى من قبل والتقط له عددًا من الصور. وصف لي الطريق وكيف أصل له، لكن خليطًا من ضيق الوقت والنسيان مع هواية فقدان الاتجاهات التي أجيدها ببراعة جعلني لا أتمكن من الوصول له.

مقهى الطاحونتين هو ملتقى الأفراد غريبي الأطوار مثلها، ولسوف نعرف خلال دقائق ما يحبه وما يكرهه كل منهم. ولا تنس أنها فتاة ناضجة الآن.. جربت بعض العلاقات العاطفية لكنها لم تشعر بأي شيء على الإطلاق... لا تفهم ما يقصدونه بمتعة الجنس والشهوة. الخ.. من الغريب أن جرعة الجنس في الفيلم عالية، لكنه يتعامل مع الجنس بلا اكتراث وبشيء من الملل، كأنه لعبة سخيفة أخرى يهوى البعض ممارستها.. وبالفعل نشعر بلا مبالاة إميلي وبراءتها تجاه ما تراه من حولها. ما تحبه فعلاً هو أن تمسك بملعقة تهشم بها القشرة على وجه (الكاستارد). ما تحبه إميلي فعلاً هو أن تغرس أناملها في جوال مليء بالحبوب. ما تحبه فعلاً هو أن تدخل السينما. لكنها لا تشاهد الفيلم.. تتأمل العيوب الغريبة في الصورة (مثل ذبابة لم يرها أحد)، وتستدير لتراقب وجوه الناس الشاخصين للشاشة كأنهم يحلمون... ثم تشتاط غيظا من الأفلام التي يقود فيها البطل السيارة ويتبادل الحوار مع البطلة ولا ينظر للطريق أبدًا، بالطبع لأن الصورة خلفه هي عرض على شاشة (باك بروجكشن) وليس طريقًا حقيقيًا!

هناك حبكات فرعية كثيرة، لكن الحبكة الرئيسة هي عندما تجد الفتاة في مسكنها صندوقًا خشبيًا حفظ فيه طفل ذكرياته.. كل طفل فعل هذا يومًا ما وربما كنت أنت منهم. لقد أخفى هذا الطفل ذكرياته الثمينة جدًا التافهة جدًا بالنسبة لنا، في هذا الصندوق.. ثم ترك الشقة وفيها جزء لا يستهان به من روحه.

هكذا عرفت إميلي أن هذا الصبي كان في شقتها منذ عقود... عليها أن تعيد له هذا الصندوق ليسترد سعادته التي فقدها في زحام الطريق..

أذكر أنني ابتعت في طفولتي بندقية جميلة جدًا من البلاستيك ولها سدادة فلينية محكمة، ولها زنبرك قوي. وما حدث هو أنها سقطت وراء خزانة الثياب العملاقة في بيتنا.. معنى هذا أنها ضاعت للأبد وبعد استعمال يوم واحد فقط!.. بكيت كما لم تبك أرامل الأساطير، ونمت تعسًا مثقل القلب.. كنت في التاسعة وقتها. في سن الثلاثين بدأت عملية الانتقال من داري، وجاء النجار ليفكك هذه الخزانة العملاقة. هنا فوجئت بالبندقية تخرج لي من وراء الخزانة،

مغطاة بالغبار ونسيج العناكب، كأنها لغم ينفجر في بحر الذكريات.. وجف قلبي.. وشعرت وأنا ألمسها بذات شعوري في يوم الجمعة ذاك منذ 21 عامًا. ولولا أنني تماسكت لرحت أركض بها في الشقة، ولرحت أصوب على النجار محدثًا أصواتًا مضحكة بفمي... على فكرة ضاعت مني ثانية.. لو وجدتها فلتعدها لي لو سمحت..

الحق أنني في لحظات عديدة تمنيت لو يأتي لي شخص مجهول ويقدم لي هذه البندقية ويبتسم ويرحل..

قررت إميلي أن تكون هذا الشخص وانطلقت في مهمة هي محور الفيلم الرئيس. وبالفعل تنجح في إعادة الصندوق، وتراقب الرجل وهو يتفحص ذكرياته وينفجر في بكاء حار... هكذا عرفت إميلي طريقها في الحياة. قررت أن تسعد الناس سرًا بعشرات اللمسات الصغيرة... تسعدهم بأشياء لم يعرفوا أنهم يحبونها لهذا الحد..

وسط هذه الرحلة تقابل جارها الرسام الذي يقضي وقته في رسم لوحة شهيرة لرينوار (غداء على قارب) بلا توقف. وهو نموذج

انعزالي فريد هو الآخر لأنه مصاب بمرض هشاشة العظام الذي يجعل أي تعامل له مع العالم الخارجي يهشمه.

تنجح إميلي في توفيق رأسي زميلتها العصابية شبه المجنونة في المقهى، مع زبون خجول عصبي بدوره. تدافع عن صبي البقال البدين الأبله الذي يتحرش به بائع الخضر... تقنع الزوجات اللاتي هجرهن أزواجهن أن الأزواج تركوا رسائل حب حارة قبل الرحيل. رسائل تكتبها هي بنفسها طبعًا..

هذه هي اللحظة المناسبة لتقع في الحب..

من تحبه إميلي بولان هو مثلها بالضبط: الشاب المتوحد المنطوي الذي يهوي جمع الصور الساقطة تحت كبائن التصوير الذاتي. أنت تعرف تلك الكبائن حيث تدخل وتغلق الستار على نفسك ثم تدفع مالاً وتنظر في المرآة، لتخرج لك أربع صور هي القبح المجسم. النتيجة أنك تتخلص من هذه الصور وتلقيها على الأرض أو تمزقها. نينو – حبيب إميلي – يهوى جمع هذه الصور في ألبوم خاص نادر.

من الصعب على إميلي أن تبدأ علاقة مع خجلها الشديد جدًا،

لكن جارها الرسام يساعدها، وهكذا تبدأ قصة حب حقيقية وغضة.. ونحن نعرف أنها ستنجح لأن عنوان الفيلم يتحدث عن المصير الرائع لأميلي بولان.

أفسحوا الطريق للجمال.. للدانتيلا.. للعذوبة والشعر..

أفسحوا الطريق للذائذ الحياة البسيطة العابرة التي لا يمكن وصفها..

لا تفوت فرصة مشاهدة هذا الفيلم لو أتيحت لك.. فهو – الفيلم نفسه – من لذائذ الحياة الصغيرة شديدة الأهمية...



تان تان

تفاصيل كهذه هي التي تصنعنا.. مساء الشتاء البارد والنوم مبكرًا، ثم الاستيقاظ في طور السِنَة، غير مدرك هل أنت تحلم أم أنك متيقظ، فقط لتنطبع القبلة على جبيني الدافئ وتلمس أرنبة أنف أبي الباردة وجهي، ثم أجد مجلة (تان تان) في يدي.. لقد ابتاعها وهو عائد من العمل، وهذا يعني أننا كنا في مساء السبت. أنام والمجلة في يدي على الوسادة.. رائحة الحبر الملون والورق العطرة.. لو أنصفوا لقطروا هذه الرائحة في زجاجات وباعوها بأغلى الأثمان. لم توجد قط مجلة لها هذه الرائحة مهما بحثت، ولا أعرف السبب.. هل كان أنفي أقوى أم كانت مطابع الأهرام تستعمل أحبارًا مختلفة؟.. لم أجد قط هذا السحر للورق القديم الرخيص في كل ما قرأته بعد ذلك من

مجلات صقيلة فاخرة الطباعة..

فقط عند ظهر الأحد بعد العودة من المدرسة كان بوسعي أن أفتح الصفحات، وأغرق في عالم غريب بعيد : (ريك هوشيه) ومغامراته في تلك القرية الفرنسية، و(مارتان ميلان) والشحنة الغامضة التي ينقلها لوسط أفريقيا، و(سيمون النهر) الذي يخطو لعالم آخر من عوالم ما بعد المحرقة..

(تان تان).. عندما يحتشد أعظم الفنانين الأوروبيين لتقديم الكلمة العليا في فن الشرائط المصورة، وهم يعرفون أنهم يواجهون الوحش الأمريكي الثري القابع عبر المحيط الأطلنطي.. الوحش الذي صنع ميكي ودنالد داك والرجل الوطواط وسوبرمان والرجل العنكبوت. لسبب ما لم أكن مولعًا جدًا بالأبطال الجبابرة الذين يضعون أقنعة ويطيرون، لكنني وقعت في غرام دونالد داك كأي واحد آخر..

جاءت تان تان لتعزف بالضبط على النغمة المناسبة لروحي، وأعتقد أن هناك جيلاً كاملاً يدعى (جيل تان تان).. كانت المجلة فاخرة الطباعة بمقاييس السبعينات، وكانت باهظة الثمن.. عشرة

قروش لم تكن زهيدة بينما أغلى مجلة أطفال لا يتجاوز ثمنها ثلاثة قروش.. لهذا خضت معارك دائمة لأبرهن لأهلي على أن التضحية تستحق. أبي فقط كان يعرف أهمية هذه المجلة لي، بينما كانت أمي ترى أن هذا هراء وأن عشرة قروش يمكنها أن تشتري عشرات الأشياء الأكثر أهمية.

(تان تان) المجلة البلجيكية التي ينشرها (لومبارد)، والتي كانت الثقب الذي نفذت منه الثقافة الفرانكفونية لنا. بطل المجلة الذي أعطاها اسمه هو الصحفي الشاب (تان تان) وصديقه القبطان (هادوك)، والتي رسمها الفنان (ريمي هيرجيه) وكانت قصصه ممتعة لكنها نادرة جدًا.

أعظم فنان عرفته تان تان في رأيي هو (هيرمان) الذي تعاون غالبًا مع المؤلف (جريج)، فقدّما شخصية راعي البقر (رد داست). (رد داست) راعي البقر الوحيد ذو الماضي الغامض الذي يوحي بأنه تورط في أشياء كثيرة لا نعرفها، لكنه – كالعادة – رام بارع جدًا. لقد قرر رد داست أن يعيش حياة شبه هادئة في مزرعة (666) التي

تديرها الحسناء (كومانشي)، التي يمكن بشيء من الخيال أن نتخيل أنها (ساندرا بولوك). يذهلك ما قام به الرسام مع كاتب السيناريو لتحويل الرسوم إلى ما يشبه الفيلم السينمائي حتى أنك لتسمع الصراخ وصوت الطلقات.. الفنان المبدع (فواز) قال لي ذات مرة وهو يضرب كفًا بكف: "الرسام المجنون رسم دلو ماء يُقذف في عدسة الكاميرا بحيث صارت هناك قطرات توشك على لمس العدسة!.. بل إنه يرسم لعاب الخيول الهائجة وهو يتطاير نحوك!". أذكر المشهد البانورامي الرهيب لمدينة (لارامي) التي تعج بالمتسكعين في ضوء الغروب الأحمر. وماذا عن المواجهة الأخيرة في زقاق مظلم بين (رد داست) و(روس دوبز) حيث تلعب الظلال والصمت دورًا مخيفًا.. هل قلت (الصمت)؟.. نعم..

نفس الرسام يقدم لنا شخصية (برنار برانس) قبطان اليخت الذي يجوب العالم. الرسام لا يريد أن يسهل المهمة على نفسه لذا لابد من مؤثرات مرهقة في كل قصة.. هناك حريق وهناك عواصف رملية وهناك ثلوج وهناك مملكة بعوض.. هناك قصة تدور في صحراء حارقة بأمريكا الجنوبية حيث الشمس توشك على أن تحرقك أنت فلا

تقدر على فتح عينيك.. لا عجب أن فنانًا مصريًا دأب على استنساخ رسوم (هيرمان) هذا استنساخًا، ولا عجب أن د. نبيل فاروق يعتبر (جريج) أديبًا عالميًا.. أي إنه ليس مجرد كاتب سيناريو.

هؤلاء الرسامون مولعون بالتحدي وركوب الصعب.. هناك رسام تخصص في رسم المستقبليات، وقصص (داني المستقبل) و(راي) حيث لا يوجد ملليمتر واحد من الصفحة بلا زخرفة معقدة جدًا..

الفنان (لوكلير) الذي تخصص في قصص (سيمون النهر) يعبر بالتحدي آفاقًا أخرى، وفي بداية قصة من قصص (سيمون النهر) نرى ذلك الشريد الجوال على ظهر حصانه يقترب من الكاميرا تحت السيول.. اقرب.. فأقرب.. وللمزيد من التأثير السينمائي يقدم لك نوتة موسيقية للحن المصاحب لهذا المشهد!. هذه قصص عالية المستوى وسيناريوهاتها ناضجة جدًا زاخرة بالمحتوى الإنساني. هناك لقطة لا تنسى للفارس إذ يبتعد عن موقع مذبحة تعرض لها الغجر الرحالة في ذلك العصر.. مشهد أعتقد أنه احتاج لأسبوع كامل في رسمه مع التكوين السينمائي الواضح. وفي مشهد آخر ترى الطائرة تحلق فوق

رأسه قادمة ثم تغيب في الأفق في لقطتين تعادلان ذات التأثير السينمائي المعروف. قارن هذا المستوى من الرسم والسيناريو بالأبطال الأمريكيين الشبيهين بالثيران بثيابهم المطاطة وعضلاتهم المبالغ فيها، وهم يهددون: "سأذيقك الويل أيها الرجل العنكبوت!".. الخ.. عندها تكتشف أن هناك فارق مستوى لا يوصف بين الستريبس الأمريكية والأوروبية لصالح الأخيرة طبعًا. الأمريكان محترفون ويعرفون ما يخلب لب القارئ، لكن الأوروبيين يعملون بحب شديد ودقة..

مارتان ميلان الطيار قوي البنية العصبي الذي يكره الكلام المفرط. هناك قصة غيرت الكثير من حياتي عن صداقته لفتى اسمه (جيروم)، وصداقة خالدة انتهت عندما قرر (جيروم) أن يزوّر شهادة طيران ليظل مع صاحبه للأبد.. ينام مارتان ميلان ليصحو على طرقات على زجاج الطائرة.. إنه جيروم ينزف دمًا وهناك طابور من الموتى ينتظرون حتى ينهي كلامه.. يقول جيروم لمارتان ألا يحزن عليه وألا يحمل نفسه المسئولية، ثم يلحق بركب الراحلين وسط السحاب.. ويفيق مارتان من نومه ليعرف أن جيروم قد مات عندما جرب قيادة

طائرة وهو غير مؤهل. قل لي بربك: هل هذه قصة أطفال أم هي عمل من روائع الأدب العالمي؟. رحلة مارتان مع طفل صغير يبحث عن أبيه في غابات الأمازون، ورحلته مع شاب يميد للأدغال اللبؤة الصغيرة التي رباها من صغره وكانت أول حب له... سوف تبكي وأنت ترى اللبؤة تتخلى عن جُبنها لتمزق ثورًا هائجًا كاد يقتل الفتى...

رحلة لا توصف بين الأزمان والبلدان.. مع تان تان عشت في عصر الغال ومع الرومان وأيام الحرب العالمية وأيام تحريم الخمور في أمريكا.. سافرت لبلدان قصية جدًا في الشرق حيث رأيت حانات قذرة لا يجسر أحد على دخولها، وعشت مع الهنود الحمر، وذهبت للهند لأواجه جيوش المغول مع (كورانتان).. هبطت على القمر مع (دان كوبر) ثم مضيت في شوارع اليابان لأزور مسرح (النو) مع (مورتيمر).. عشت في عصور ما قبل التاريخ القاسية مع (تونجا) وعشت في أزمنة مستقبلية غير محددة مع (داني المستقبل).. عشت في الريف الإنجليزي مع سادته المتحفظين ومفتشي سكوتلانديارد المتقاعدين.. وخضت حروبًا كثيرة في العصور الوسطى...

يخيل لي أن هذه المجلة ارتادت كل الأفكار الممكنة وأن كل فكرة قد سبق أن نشرت هناك..

صحيح أن كلمة (يتبع) في نهاية القصة كانت تثير جنوني.. عليك الانتظار أسبوعًا هو الدهر ذاته حتى تعرف ما حدث.. لكنك في النهاية تقدر على جمع أعداد القصة كلها وقراءتها كاملة..

جاء اليوم المفجع الذي أعلنت فيه المجلة أنها ستتوقف.. لقد انتهى ضخ الأحلام لأن السوق العربية قد أغلقت بعد (كامب ديفيد). توقفت المجلة ثم ظهرت في محاولة خجول بلا ألوان وبسعر فادح لا يمكن تصديقه (أربعون قرشًا)، ثم توقفت نهائيًا بعد ذلك..

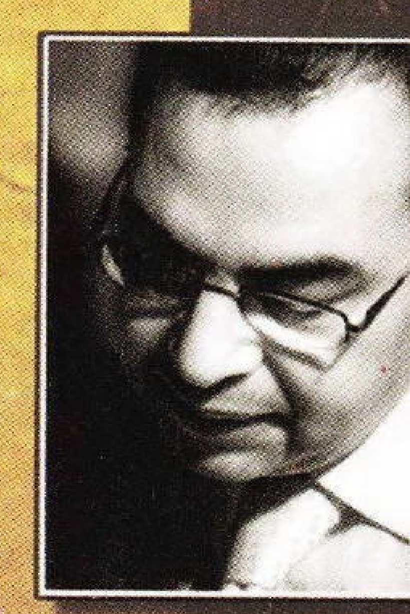
كنا نحن جيل تان تان بلا مراء، ولا شك في أن أي سيناريو قصص مصورة كتبته في حياتي يحمل بصمة منها. أما عن التهمة الدائمة لها بأنها خنجر الثقافة الفرانكفونية المصوب لصدورنا، فرأيي أنها كانت تمر عبر مرشح مصري مخلص اسمه (الأهرام) حيث يتم استبعاد القصص غير المناسبة لثقافتنا، ولا أذكر أن أي جاسوس قبض عليه كان من قراء تان تان. تذكر أن القيم الأمريكية

تملأ مجلات ميكي وسوبرمان وسبايدرمان.. تذكر أنه لا توجد علاقة أبوة بين أي من أبطال ميكي، وتذكر أن دونالد داك لا يكف من محاولة مواعدة (ديزي) البطة الفاتنة..

كانت تان تان نافذة فتحت لنطل منها على ما يفكر فيه العالم، ولا أرى أن هذه النافذة كانت مضرة بأي شكل، لكن هناك دلائل عدة توحي لي بأنها بعيدة تمامًا عن ذوق شباب اليوم، وقد فشلت عدة محاولات لإحيائها.. ربما تغير الشباب أو ربما التجربة لم تأخذ فرصتها الكاملة.. لا ادري.. لكني أعرف أنني أقتني كل عدد صدر من هذه المجلة، وأعرف كذلك أنها لو عادت للصدور اليوم لعدت لشرائها بلا تردد لأنها جزء حقيقي بالغ الأهمية من ذاتي.

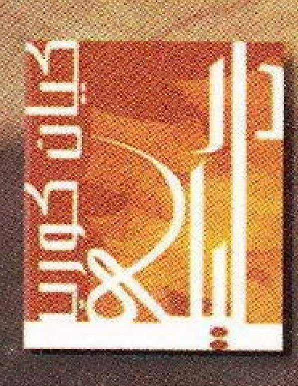
الفهرس





لابد أن نتوقع ممن أصدر كتابًا اسمه (شاي بالنعناع) أن يصدر كتابًا آخر اسمه (قهوة باليورانيوم).. هذا شيء حتمي له قوة القانون. ولا تسأل لماذا اليورانيوم بالذات، فلا يمكن أن يكون الكتاب قهوة بالزركونيوم أو الجرمانيوم. بعض هذه المقالات ساخر وبعضها مفعم بالشجن وبعضها يتلصص على عالم الفن الساحر.. لكنك لن تجد مقالًا سياسيًا واحدًا في هذه المجموعة، لأن السياسة تسربت إلى كل شيء، ولوثت كل شيء، والتصقت رائحتها بأناملنا وأوراقنا وأدوات طعامنا وشعر حسناوات شارعنا.. سوف نفر من السياسة ونحتمي في مكان هادئ دافئ لن تجدنا فيه لعدة ساعات.

د. أحمد خالد توفيق




روائع مجلة
الابتسامة
من الكتب
المعالجة
والصفحات الفردية